الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبي الحسن

٦٣٥ — ٨٧١ هـ : ١٢٣٨ — ١٤٦٦ م

obeikandl.com

الفصل الأول

الأندلس الغاربة

دول الطوائف . المرابطون . سقوط القواعد الأندلسية فى يد النصارى . شعور أهل الأندلس بمصيرهم . مدينة غرناطة . صفتها أيام الدولة الاسلامية

يقدم إلينا تاريخ الأندلس فى مراحله الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان ، ولكنه يقدم إلينا فى مراحله الأخيرة صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود ، وتعاقب المحن ، والانحدار البطىء المؤلم إلى معترك الهزيمة ، والذلة والسقوط .

ولا تمثل قصة الأندلس سوى الحقيقة التاريخية الخالدة ، وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم ، وتبدل الحضارات والدول . ولكن الصراع الطويل المضطرم الذى خاضته الأمة الإسلامية فى الأندلس ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم ، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة ، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم التى اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها .

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة فى سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة التى تقلبت فيها الأمة الأندلسية منذ انهار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التى كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة خلال حلك العصور الوسطى ، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ويحدث أعمق صدى فى جنبات الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ، وينتزع من وحى النثر والنظم أروع المراثى . وكانت الأمة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة فى يد عدوتها القديمة المتربصة بها — اسبانيا النصرانية —

ألفت عزاءها فى قواعدها الأخرى ، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية ، إستبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها ، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة ، ولكن أبية ساطعة ، استطاعت عبقرية بناتها النصريين أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتى عام .

والحقيقة أن مصير الأندلس كان يهتز فى يد القدر مذ فشلت ريح دول الطوائف وغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض ذوى النظر الثاقب من رجالات الأندلس ، حتى فى ذلك العصر الذى كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم . فنرى ابن حيّان مؤرخ الأندلس فى القرن الخامس الهجرى يقول لنا بعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر من أعمال الثغر الأعلى (أرجوان) فى يد النصارى فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبى وشنيع الاعتداء : « وقد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة مصائب جليلة مؤذنه بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولا شك عند ذوى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة فأصبحنا من استشعار ذلك والتجارى عليه على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة » . ويندد ابن حيان بعد ذلك بتواكل أهل الأندلس وتخاذلهم عن نصرة دينهم وإخوانهم(١). بل لقد لاح مدى لحظة حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) أن الأندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة سوف تسقط تباعاً فى يد عدوها القوى ، وأن دولة الإسلام فى اسبانيا سوف تطوى وتختتم حياتها المجيدة فى شبه الجزيرة . وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ جنبات الأندلس كلها ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدّوا رحالكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

(١) نفح الطيب (مصر) ج ٢ ص ٥٧٦ .

ولكن الدرس كان عميق الأثر ، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد ، وجمعت المحنة منهم الكلمة ، وارتدوا إلى ما وراء البحر يلتمسون الغوث إلى « المرابطين » إخوانهم فى الدين . وكان المرابطون يومئذ فى عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه القوى على أمم المغرب من المحيط غرباً حتى تونس شرقاً . فاستجاب المرابطون إلى صريخ الطوائف ، وعبروا البحر إلى الأندلس فى قوات ضخمة ، والتقت جيوش الإسلام المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالجيوش النصرانية المتحدة بقيادة الفونسو السادس زعيم اسبانيا النصرانية ، فى سهول الزلاقة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (اكتوبر سنة ١٠٨٦ م) فأحرز المسلمون نصراً عظيما ؛ وكانت موقعة الزلاقة من أيام الأندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس الأمة الأندلسية ، وبدأت الأندلس حياة جديدة . ولكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم ، واجتذبتهم نعماء الأندلس وثرواتها ، فحطموا دول الطوائف وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن . ولما سقطت دولتهم فى المغرب وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، عبر الموحدون البحر إلى اسبانيا ، وافتتحوا الأندلس وبسطوا عليها حكمهم زهاء قرن آخر . وفى ظل الموحدين أحرزت اسبانيا المسلمة كما أحرزت فى الزلاقة أيام المرابطين ، نصرها الحاسم على اسبانيا النصرانية بقيادة يعقوب المنصور ملك الموحدين وذلك فى موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م)[١] . ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة بعد ذلك بقليل على يد اسبانيا النصرانية فى موقعة العقاب المشئومة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م)[٢]. وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قوياً منذراً ، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً فى رسائلهم وقصائدهم. ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الإشبيلى معلقاً على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر فى عقاب ... غداً سبباً لمعركة العقاب
فما فى أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب[٣]

---

(١) وتعرف فى الاسبانية بموقعة Alarcos
(٢) وتعرف فى الاسبانية بموقعة Las Navas di Tolosa
(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

وفى خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن ، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور : سرقسطة (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) وتطيلة (٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م) وطرطوشة ولاردة وأفراغة (٥٤٢ هـ — ١١٤٨ م) وأشبونة (٥٤١ هـ — ١١٤٧ م) وجزيرة ميورقة (٦٢٧ هـ — ١٢٢٩ م) وماردة ويطليوس (٦٢٨ هـ — ١٢٣٠ م) وأبده (٦٣١ هـ — ١٢٣٣ م) وقرطبة (٦٣٣ هـ — ١٢٣٦م) وبياسة وإستجة والمدوّر (٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م) وبلنسية (٦٣٦ هـ — ١٢٣٨ م) وشاطبة ودانية (٦٣٨ هـ — ١٢٤٠ م) ولقنت وأريولة وقرطاجنة (٦٤٠هـ—١٢٤٢م) ومرسية (٦٤١ هـ — ١٢٤٣ م) وجيان (٦٤٤ هـ — ١٢٤٦م) وإشبيلية (٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م). وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى .

وأخذت الأندلس عندئذ تواجه شبح الفناء مرة أخرى ، وطافت بالأمة الأندلسية التى احتشدت يومئذ فى الجنوب فى بسيطها الضيق ريح من التوجس والفزع ، وعاد النذير يهيب بالمسلمين أن يغادروا ذلك الوطن الخطر ، الذى يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى إلى الأمة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم .

ولكن شاء القدر أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبغ على الدولة الإسلامية بالأندلس حياة جديدة فى ظل مملكة غرناطة التى استطاعت أن تبرز من غمر الفوضى ضئيلة فى البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئاً فشيئاً وأن تذود عن الإسلام ودولته الباقية بنجاح أكثر من قرنين . وكان من حسن طالع هذه المملكة الإسلامية الصغيرة أن شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين بمنازعتها وحروبها الداخلية ، فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى وهى القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس وعلى الأمة الأندلسية بصورة نهائية ، إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة أبية كريمة ، ترفع لواء الإسلام عالياً فى تلك الربوع ، التى افتتحها الإسلام

قبل ذلك بعدة قرون، وعمرها المسلمون بأروع وأرفع ضروب العلوم والفنون التى عرفت فى العصور الوسطى .

— ٢ —

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية « إلبيرة » تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية من الناحية الشمالية ، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس فى موقعة شريش فى رمضان سنة ٩٢ هـ . (يوليه سنة ٧١١ م) . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢ م) واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية ، والعرب والبربر من ناحية أخرى ، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبية الشاميين ، ففرقهم فى أنحاء الأندلس ، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة ، وجند الأردن برية ، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة ، وغدوا بمضى الزمن كثرة فيها . واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها فى ظل الدولة الأموية ، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن ، وعاث البربر فى النواحى ، وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها ؛ ومن ذلك الحين يختفى اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس ويذكر مكانها اسم غرناطة . والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران فى معظم الأحيان ولا سيما فى المراحل الأولى لتاريخ الأندلس اسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما (١) .

وغرناطة أو أغزناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط، ويقال إنه مشتق من الكلمة الرومانية Granatà أى الرمانة ، وإنها سميت كذلك لجمالها ولكثرة حدائق الرمان التى تحيط بها (٢) . والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق فى الحسن ،

(١) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب (مصر) ج ١ ص١٢ — ١٨

(٢) المستشرق سيبولد فى : Ency. de l'Islame : Grenade ؛ وكذلك فى معجم ياقوت فى « غرناطة » . وقيل إنها سميت كذلك لأنها أنشئت على البقعة التى زرع فيها الرمان لأول مرة عند نقله من إفريقية اليها، وقيل أيضا إنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على التلين تشبه بمنازلها الكثيفة الرمانة المشقوقة . راجع كتاب : (Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 190, Note)

فهى تقع على الضفة اليمنى لنهر « شنيل » أحد فروع الوادى الكبير ، ويخترقها فرعه المسمى نهر دارّو (أو نهر هدارة أو حدارة) ويلتقى به عند جنوبى غرناطة . وتشرف غرناطة من الجنوب الغربى ، على بسيط شاسع أخضر وافر الخصب هو المرج أو الفحص الشهير La Vega (١) الذى يمتد غرباً حتى مدينة لوشة ، ومن الجنوب الشرقى على جبال سيرانيفادا Sierra Nevada (جبل شُلير) التى تغطى آكامها الثلوج الناصعة .

وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية جنة من جنات الدنيا ، تغص بالغياض والبساتين اليانعة التى كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها تعرف « بالحنسان » فيقال للمزرعة أو البستان « جنة كذا » أو جنة فلان ، مثل جنة الحرف وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب أن هـذه الجنان الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ فى عصره زهاء المائة ، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ما كان يبلغ سكانه الألوف ومنها ما كان يملكه مالك واحد أو ملاك قلائل . هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون . وبذلك نستطيع أن نقدر أن مدينة غرناطة كانت تضم أيام أن كانت عاصمة للدولة الإسـلامية أكثر من نصف مليون من الأنفس ، وأما خارج المدينة فيصفه ابن الخطيب فى قوله :

« ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير من ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضراته ، فلا ترى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين » . وأما المرج الشهير أو الفحص La Vega فقد كان بسيطاً رائع الخضرة يشبهونه بغوطة دمشق ، وتخترقه الجداول والأنهار ، ويغص بالقرى والجنات ، ويهرع إليه الرواد فى ليالى الربيع والصيف فيغدو مسرح الأسمار والأنس .

وكانت المدينة ذاتها نموذجاً بديعاً للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة . وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها ، تطل على أحيائها « فى سمت من القبلة تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تغشى العيون ، وتبهر العقول » (٢) .

---

(١) وهى كلمة اسبانية معناها المرج ، ولعلها كانت مشتقة من كلمة « فحص » العربية .

(٢) راجع الاحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٢٥، ٣٢، ٣٣ ، واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب أيضا ص ١٣ و ١٤ .

وقد أشاد بذكر محاسن غرناطة وفضائلها كتاب الأندلس وشعراؤها ؛ وانتهت إلينا من منظومهم ومنثورهم فيها تراث حافل ؛ ينم بالرغم مما يحمله أحياناً من طابع المبالغة ، عما كانت تثيره غرناطة فى نفوسهم من عميق الإعجاب والحب. وقد أورد لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » والمقرى فى « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » كثيراً من هذه القصائد والرسائل وإليك بعض نماذج منها :

قال ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ... ومن الحسور المحكمات سواره

وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أغرناطة العلياء بالله خبرى ... أللهائم الباكى إليك طريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر ... وبهجة للعيون تروق
تأمل إذا أملت حوز مؤمل ... ومد من الحمراء عليك شقيق
وأعلامه نجد والسكينة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرندا مهندا ... يضىء فوق درّ ذُرفيه عقيق

وقال آخر :

غرناطة مالها نظير ... ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى إلا العروس تجلى ... والأرض من جملة الصداق

أما اليوم فقد غدت غرناطة مدينة متواضعة لا يزيد سكانها على ثمانين ألفاً ، وقد زال عنها بهاؤها السابق ، ولكن بقيت بها بعض صروحها ومعالمها القديمة . وأعظم آثارها الباقية منذ أيام المسلمين هو بلا ريب قصر الحمراء الملوكى الذى مازال يحتفظ بكثير من روعته القديمة ، وقصر جنة العريف الواقع فى شرقيه ، وقد كان مصيفاً للملوك غرناطة وقصر شنيل ، وقد كان مقاماً للملكات غرناطة . أما المسجد الجامع وبقية المساجد الأخرى فقد حولت كلها إلى كنائس . وما زالت بقية من معالمها القديمة مثل حى البيّازين الواقع فى غربها ، والقصبة القديمة ، والميدان الكبير الذى ما زال يحمل اسمه القديم « رحبة باب الرملة » Plaza di Bibramlla

كذلك بقيت بعض أبوابها القديمة مثل باب البنود ، وباب إلبيرة ، وباب

البيازين ، وباب فج اللوزة . وما زالت « قنطرة شنيل» قائمة على النهر عند التقائه بفرعه حدارة وتحمل اسمها القديم Puenta del Genile . ومما يجدر ذكره أن غرناطة الحديثة ما نالت ، بالرغم مما توالى عليها من الخطوب والأحداث ، تحتفظ بكثير من تقاليدها العلمية والثقافية القديمة ، فهى مركز جامعة غرناطة الشهيرة التى أسسها الامبراطور شرلكان سنة ١٥٣١ ، وبها عدة معاهد ثقافية ، ومتاحف فنية وأثرية .

الفصل الثاني

نشأة مملكة غرناطة

وقيام الدولة النصرية

غرناطة منذ عهد الفتنة حتى عهد الموحدين . اضمحلال دولة الموحدين بالأندلس . ظهور ابن هود وثورته على الموحدين . استيلاؤه على مرسية . دعاؤه للخلافة العباسية . الحرب بين ابن هود وبين النصارى . هزيمة ابن هود . زحف النصارى على قرطبة . استغاثتها بابن هود . ابن هود يؤثر السير الى بلنسية . حصار قرطبة وسقوطها في يد النصارى . وفاة ابن هود . غزو ملك أراجون لبلنسية واستيلاؤه عليها . استيلاء القشتاليين على مرسية . أحوال جنوبي الأندلس . ظهور محمد بن الأحمر . طاعة القواعد الجنوبية له . دعوته لصاحب افريقية . تحالفه مع الباجي وغدره به . دخول جيان ومالقة وشريش في طاعته . الثورة في غرناطة . دعوتها لابن الأحمر واستيلاؤه عليها . استيلاؤه على المريه . بنو اشقيلولة أصهار ابن الأحمر . قيام مملكة غرناطة . افتراق كلمة الأندلس . خضوع القواعد الشرقية للنصارى . غزو ابن الأحمر لمرطوش . غزو فرديناند الثالث لأراضي ابن الأحمر وحصاره لغرناطة . خضوع ابن الأحمر لفرديناند وتعهده بأداء الجزية . سقوط القواعد الغربية في يد النصارى . تأهب فرديناند لافتتاح اشبيلية . استيلاؤه على قرمونة . حصار اشبيلية . معاونة ابن الأحمر للنصارى . قصيدة ابن سهل في استصراخ أهل العدوة . سقوط اشبيلية في يد النصارى . سقوط باقي القواعد الغربية . ابن الأحمر ودقة موقفه . اتجاهه الى عون بني مرين . الحرب بينه وبين النصارى . سقوط استجة . هزيمة ابن الأحمر . صدى صريخ الأندلس في المغرب . نزول ابن الأحمر عن شريش والقلعة وغيرها . صدى سقوط القواعد الأندلسية . مرثية أبي البقاء الرندي . ثورة بني اشقيلولة بمالقة . غزو النصارى للجزيرة الخضراء . صفات ابن الأحمر وخلاله . كيف يصورها النقد الحديث . وفاة ابن الأحمر .

لبثت غرناطة في ظل الدولة الأموية قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية ، وهي تحتل مكان إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية في أواخر القرن الرابع ، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو بعد تخريب

قرطبة ونأى القواعد والثغور الشرقية والشمالية، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة. ووقعت غرناطة يومئذ فى نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوى بن زيرى واتخذها دار ملكه، وقامت فى قرطبة دولة بنى حمود البربرية. واستمرت الحرب والفتنة مدى حين سجالا بين المتغلبين من فلول بنى أمية وفتيانهم ومواليهم، وبين زعماء البربر. ولما ظهر المرتضى وهو من عقب بنى أمية ودعا لنفسه بالخلافة، سار فى عصبة الأمويين والموالى إلى غرناطة لانتزاعها واتخاذها دار ملكه، فرده عنها صاحبها زاوى الصنهاجى فى موقعة دموية (٤٠٨ هـ). واستقر زاوى فى حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام ثم غادرها إلى دار قومه فى تونس، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن فحكمها حتى توفى فى سنة ٤٢٩ هـ. وخلفه فى ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر، واستولى على مالقة من يد الأدارسة (بنى حمود) واتسع ملكه. ولبث طول حكمه الذى استطال حتى سنة ٤٦٧ هـ فى قتال مستمر مع بنى عباد أمراء إشبيلية أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ. ولما توفى باديس المظفر خلفه فى حكم غرناطة وأعمالها، حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، واستمر فى حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس فى سنة ٤٨٣ هـ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين؛ واستولوا عندئذ على غرناطة كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى، وانتهت بذلك دول الطوائف التى قامت على انقاض الخلافة الأموية وعاشت زهاء ستين عاماً.

واستمر المرابطون فى حكم الأندلس وقواعدها زهاء ستين عاماً أخرى، وتعاقب فى حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين(١) وسادتهم من قرابة يوسف بن تاشفين؛ فلما انهارت دولتهم فى إفريقية، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والثغور، وسقطت غرناطة فى أيديهم بعد ذلك بثلاثة أعوام، فى سنة ٥٤٣ هـ (أواخر سنة ١١٤٨ م) وذلك بالرغم مما بذله المرابطون بقيادة قائدهم الشهير يحيى بن غانية وحلفاؤهم النصارى من جهود فادحة للدفاع عنها

ولبثت غرناطة كباقى القواعد الأندلسية فى يد الموحدين، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بنى عبد المؤمن وقرابته، حتى كانت ثورة أبى عبد الله محمد بن يوسف

---

(١) لمتونة هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها المرابطون، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين.

ابن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين على الموحدين . وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم .

وذلك أنه لما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله سلطان الموحدين فى سنة ٦٢٠هـ دون عقب ، قام ابن أخيه أبو عبد الله محمد ولد يعقوب المنصور بالأندلس وأعلن نفسه أميراً على بلنسية ، باسم العادل بالله . وقام أخوه أبو على ادريس فى إشبيلية واتخذ لقب المأمون ، وبسط سلطانه على الأندلس . ولما توفى أخوه العادل أمير بلنسية قتيلا بيد الثوار بعد ذلك بأربعة أعوام (٦٢٤ هـ) خلفه فى رياستها . وولى عليها أخاه السيد أبا عبد الله ليحكمها من قبله . ثم شغل المأمون فى الأعوام القلائل التالية بالعمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم واستعمل العنف المثير ، وقضى على رسوم المهدى وتعاليمه ونظام حكومته ، باعتبارها نظماً رجعية ، لا تتفق مع روح الدين الصحيح ، فسرت روح السخط بين القبائل ، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص . وبينما كان المغرب يضطرم بعوامل الثورة على هذا النحو والمأمون يشغل بقمع الخوارج عليه ، كان سلطان الموحدين بالأندلس يضطرب فى الوقت نفسه ويتداعى بسرعة وينهار حكمهم تباعاً .

فى تلك الآونة ظهر ابن هود يدعو إلى دعوة جديدة ، تمثل فيها روح الأندلس الحقيقية ، وهى وجوب العمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين والنصارى معاً . وكان المأمون حينما اشتد عليه الأمر بالأندلس قد تحالف مع ملك قشتالة وتنازل له عن عدد من القواعد والحصون ، وتعهد بأن يمنح النصارى فى أراضيه امتيازات خاصة وذلك لقاء معاونة ملك قشتالة له على محاربة خصومه . وكان تحالف الموحدين مع النصارى على هذا النحو يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه . وظهر ابن هود لأول مرة فى أحواز مرسية فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) فى الوقت الذى أخذ فيه سلطان الموحدين يضطرب ويتصدع فى الثغور والنواحى ، ثم أغار على مرسيه فى عصبته القليلة ، واستطاع أن ينتزعها من يد حاكمها السيد أبى العباس . وأخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، والعمل على إحياء الشريعة وسننها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسى ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمواسيم ،

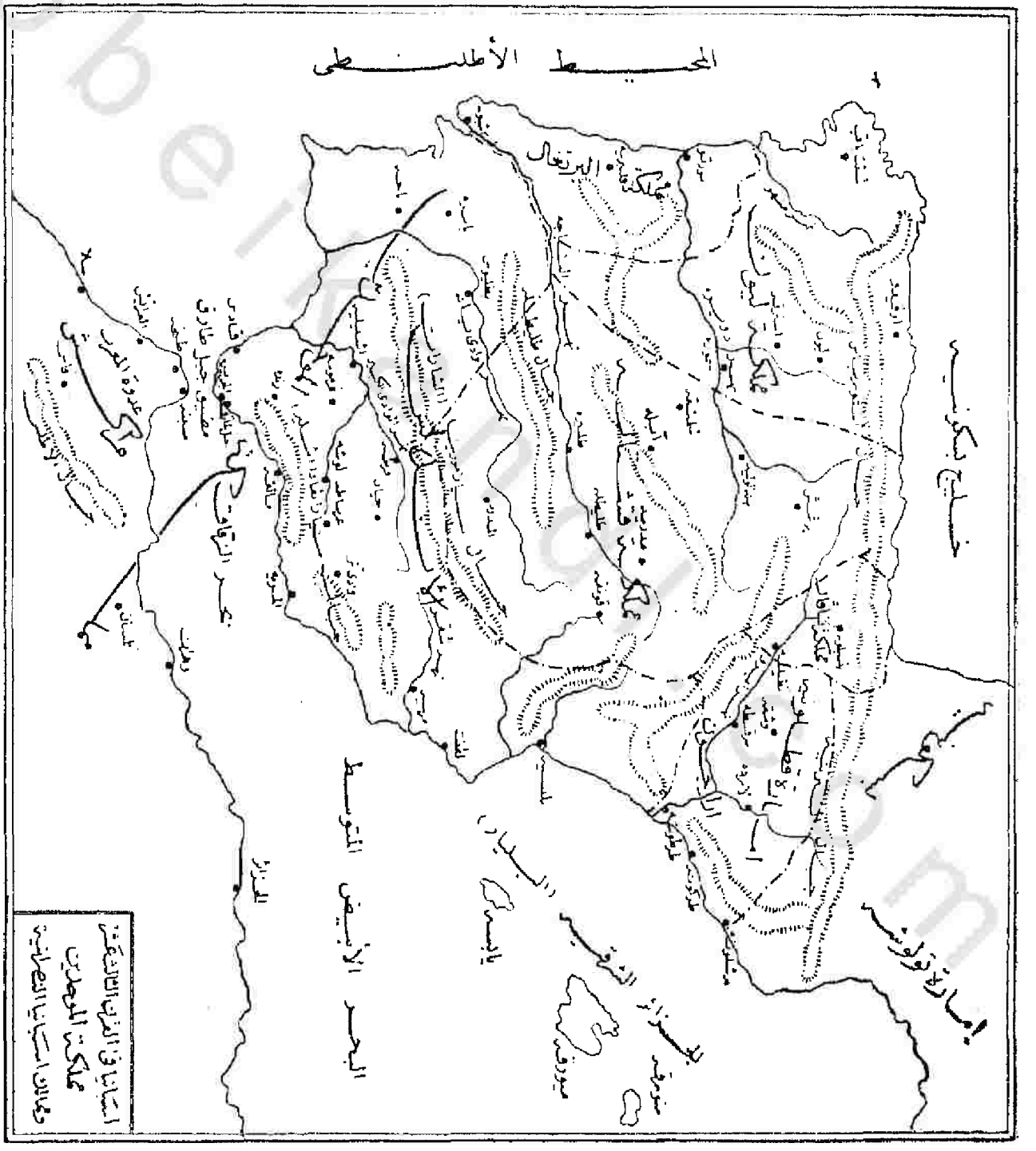

المحيط الأطلسى
البرتغال
البحر الأبيض المتوسط

obeikandl.com

وتلقب بالمتوكل على الله . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت فى طاعته عدة من قواعد الأندلس ومنها جيان وقرطبة وماردة ويطليوس ، ثم استطاع أن ينتزع غرناطة قصبة الأندلس الجنوبية من المأمون فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) .

وفى العام التالى (٦٢٩ هـ) توفى المأمون ملك الموحدين وهو فى طريقه إلى مراكش ليعمل على إنقاذ عرشه من المتغلبين عليه . وبينما كان سلطان الموحدين بالأندلس يدنو سراعاً من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل فى دور الانحلال فى ظل نفر من الأمراء الضعاف ، ثم تختتم حياتها بعد ذلك بنحو أربعين عاماً فى سنة ٦٦٨ هـ لتقوم على انقاضها دولة بنى مَرِين .

واستمر ابن هود حيناً يخوض مع الموحدين والنصارى معارك متعاقبة . ونشبت بينه وبين فرديناند الثالث ملك قشتالة فى ظاهر ماردة معركة انتهت بسقوط ماردة ويطليوس فى يد النصارى فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) . وانتهز فرديناند الثالث ملك قشتالة تلك الفرصة التى اضطرمت فيها المملكة الإسلامية كلها بنار الحرب الأهلية ، فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وقد كان يبدو فى نظره يومئذ زعيم الأندلس الحقيقى . وكان ابن هود قد استطاع فى تلك الآونة أن يبسط سلطانه على الولايات والشواطىء الجنوبية فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى فى مقاتلة النصارى عاملا لتدعيم دعوته وسلطانه ، فسار للقائهم والتقى الجيشان فى فحص شريش على ضفاف نهر وادى لكة ، ولكن ابن هود هزم بالرغم من تفوقه فى العدد (أواخر ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م) وسار فرديناند بعد ذلك لاجتياح أبده فسقطت فى يده بعد حصار قصير (٦٣١ هـ — ١٢٣٤ م) .

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس . وكان ابن هود عقب هزيمته فى شريش قد جمع قواته وسار لقتال خصمه ومنافسه الحديد محمد ابن الأحمر فى أحواز غرناطة ، وألفى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة . وكان الأمر فيها فوضى وليس فيها من يجمع الكلمة ، ويتزعم الدفاع . وفاجأ القشتاليون بعض أبراجها فى البداية ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء عليها ليس بالأمر السهل ، ولابد لتحقيقه من قوات ضخمة . وعلم فرديناند الثالث وهو فى طريقه إلى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من

ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد إليها مسرعاً تلاحقه قواته من سائر الأنحاء ، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعى يطلبون الغوث والإنجاد ؛ وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم أن يسير لإنجاد الحاضرة المحصورة ، ولكنه علم فى طريقه أن جيش القشتاليين يفوقه فى الأهبة والكثرة ، ووصله من جهة أخرى صريخ أبى جميل زيان أمير بلنسية لمعاونته ، ضد جايم ملك أراجون الذى اشتد فى مناوئته وإرهاقه ؛ ولاح له أن السير إلى بلنسية التى كان يطمح إلى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها أو يستطيع انقاذها فيما بعد . ولبث النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر ، ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحرياتهم أعنف دفاع وأروعه ، ولكنهم اضطروا فى النهاية ، وبعد أن أرهقهم الحصار وفقدوا كل أمل فى الغوث والانقاذ ، إلى التسليم . ودخل النصارى قرطبة فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م) وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام . وكان لسقوط العاصمة الخلافية التالدة أعظم وقع فى الأندلس وفى سائر جنبات العالم الإسلامى ، وكان ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية إلى قلب الأندلس المفككة المنهوكة القوى (١).

ولم يلبث ابن هود أن توفى بعد ذلك بقليل فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وكانت وفاته فى ثغر المرية ، فى ظروف غامضة . وكان قد سار إليها معتزماً أن ينقل بعض قواته فى البحر لإنجاد أمير بلنسية ، فقيل إن وزيره ونائبه فى المرية أبا عبد الله محمد بن عبد الله الرميمى استضافه فى قصره ، ودبر قتله غيلة ، وزعم فى اليوم التالى أنه توفى مصروعاً . وكان الرميمى قد قام بدعوته فى المرية ووفد عليه فى مرسية فقدر عونه وولاه وزارته وعينه حاكماً لألمرية ، ثم تغير عليه فيما يقال من أجل جارية

---

(١) راجع فى سقوط قرطبة ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و١٨٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ حيث يشير إليه إشارة عابرة مع تحريف فى التاريخ ، إذ يذكر أن سقوطها كان فى سنة ٦٣٦ هـ . وراجع أيضاً ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ الألمانى أشباخ (وترجمة محمد عبد الله عنان) ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٧ .

حسناء أغراها الرميمى ، فسار إلى ألمرية لمعاقبته ، وخشى الرميمى العاقبة فدبر مصرعه ولجأ إلى الحريمة احتفاظاً بسلطانه (١).

وهكذا توفى ابن هود وهو فى ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التى بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملا خلباً ، سوى بضعة أعوام ، فانهارت بوفاته دولته التى لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد (٢).

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته بادر چايم ملك أراجون بانتهاز الفرصة السانحة فغزا ولاية بلنسية . وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام قلائل على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) . وكانت بلنسية قد بقيت فى يد الموحدين وتولى إمارتها السيد أبو عبد الله محمد أخو المأمون وتلقب بالعادل حسبما أسلفنا . وكان مذ رأى خطر ابن هود على إمارته قد استغاث بملك أراجون وانضوى تحت لوائه ، وتعهد له بأداء الجزية . وعندئذ ثار أهل بلنسية واختاروا لهم زعيما آخر هو أبو جميل زيان سليل آل مردنيش أمراء بلنسية السابقين ، ففر السيد أبو عبد الله أمام السخط العام ، والتجأ إلى ملك أراجون واعتنق النصرانية . ثم غزا چايم بلنسية وحاصرها ودافع أهلها عن مدينتهم ببسالة ، واستغاث أميرها أبو جميل زيان بأمير تونس الحفصى فلم يغنهم ذلك شيئا ، وسقطت بلنسية فى يد النصارى فى صفر سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م)(٣) وأتبع چايم فتح بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية وذلك سنة ٦٣٨ هـ — ١٢٤١ م . وأما ولاية مرسية فقد استولى عليها فى البداية الأمير أبو جميل زيان عقب فقده لبلنسية ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا إليه يلتمسون مهادنته ومحالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء مدنهم فى طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فرديناند ملك قشتالة الى ملتمسهم ، وبعث إليهم ولده الفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحاً سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس كله فى يد النصارى فى أعوام قلائل فقط ، وكانت

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ و ٥٨٣ .

(٢) راجع فى ثورة ابن هود ووفاته ابن خلدون فى ج ٤ ص ١٦٨ — ١٧٠ ؛ والاحاطة ج ٢ ص ٩٠ — ٩٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ — ٥٨٣ ؛ وراجع تاريخ الموحدين والمرابطين ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ و ١٨٦ و ١٨٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

نفس المأساة تتكرر فى ذلك الوقت نفسه بصورها وأوضاعها المحزنة فى غربى الأندلس حسبما نفصل بعد .

— ٢ —

وفى تلك الآونة العصيبة التى أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة : قرطبة ، وبلنسية ومرسية وإشبيلية ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، والتى أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة فى جنوبى الأندلس هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير آخر الحواجز الطبيعية ، بين اسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى عُدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث والعون من اخوانها فى الدين . وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبى جميل زيان إلى أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية (تونس) وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها : (١).

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... ان السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل عز النصر منك ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة المنام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا

(١) تراجع هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها ؛ وفى أزهار الرياض ج ٣٠٧ وما بعدها ، وهى من غرر القصائد الأندلسية السياسية.

وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لانالت مقاسمهم ... ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أوما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى الذى لبث أحقاباً يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لها شبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً.

وقد قامت مملكة غرناطة التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلا آخر فى ظروف متواضعة . وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا ، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحى ، والبعض الآخر ينتزعه النصارى ، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال قرطبة . وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى . ويُرجع بنو نصر نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وقد أشار إلى هذه النسبة بعض مؤرخى الأندلس ومنهم الرازى(١) . وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية . وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقشف جندياً وافر الجرأة والعزم ، يتزعم قومه ، ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ؛ فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون فى الثغور والنواحى ، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس وظهر ابن هود على الموحدين فى الثغور الشرقية ؛ لاحت لمحمد بن يوسف فرصة

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ، والإحاطة ج ١ ص ٣٩ و ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ .

العمل ، وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً يبدو لكثير من الزعماء وذوى الرأى ، معقد الآمال فى انقاذ ما بقى من تراث الأندلس ، فالتفت حوله الصحب والأنصار أولا فى أرجونة موطن أسرته وعصبته ، وفى الجهات المجاورة لها . وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه فى شرقى الأندلس وجنوبها ، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه فى الأنحاء الوسطى ، ولم يلبث أن أطاعته بياسة ووادى آش وما حولها من البلاد والحصون ، وبسط حكمه على تلك الأنحاء بالرغم من معارضة ابن هود . ثم اتجه ببصره إلى القواعد والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل ، وأبعد الأماكن عن متناول العدو ، ورأى فى الوقت نفسه ، أن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين ، فدعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون ، ونادت قرمونة وقرطبة وإشبيلية بطاعته لمدى قصير ، ثم عدلت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود . ولما اضطرمت الثورة فى إشبيلية واستطاع الزعيم الثائر أبو مروان الباجى أن يبسط حكمه عليها ، وأن يخرج منها عامل ابن هود ، بادر محمد بن يوسف إلى محالفته على معارضة ابن هود ومقاتلته ، وهزماه سوياً فى بعض المواقع . ولكن محمداً غدر بعد ذلك بالباجى ليخلو له الجو ودس عليه من قتله(١) ولم يمض قليل على ذلك حتى أطاعته جيان وشريش ومالقة وكثير غيرها من القواعد والحصون القريبة (سنة ٦٣٠ هـ) . أما إشبيلية وغربى الأندلس فقد احتفظت باستقلالها فى ظل بعض الأمراء الموحدين . وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التى وقعت فى يد النصارى ، واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والمشاة .

ولما قويت دعوة ابن هود وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسى على دعوته ، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانعته والانضواء تحت لوائه ، فانحاز إليه وجاهر بطاعته ، ولكن ابن هود ما لبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ وانهارت دولته كما قدمنا . وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل لاجتناء تراثه فى الأنحاء الوسطى . وكان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة ابن يحيى المغيلى ، وكان خصما لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر ، وكان ظلوماً جائراً

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، واللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٣١ .

فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد . واقتحموا القصبة والقصر فى عصبتهم وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر، وبعثوا إليه يستدعونه ؛ فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها فى يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (ابريل سنة ١٢٣٨ م) فى أصيل يوم نزوله ، وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب ، ثم خرج من المسجد إلى قصر باديس والشموع بين يديه ونزل فيه مع خاصته ، وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه ، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود[1] . وما كاد ابن الأحمر يستقر فى حاضرته الجديدة حتى عول على افتتاح المرية وسحق ابن الرميمى وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته وحاصرها مدة فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمى من جهة البحر بأهله وماله فى سفينة خاصة ، وسار إلى تونس مستظلا بلواء أميرها أبى يحيى الحفصى ، وملك ابن الأحمر المرية وامتد بذلك سلطانه إلى سائر الشواطىء الجنوبية .

وكان من أعظم أعوان محمد بن يوسف فى تلك المعركة التى انتهت بتحقيق رياسته أصهاره بنو اشقيلولة . وكان كبيرهم أبو الحسن بن اشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته ، فانحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونه على مقاومة خصومه ، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ولده أبو محمد عبد الله بن اشقيلولة من ابنته . ولما استقام الأمر لابن الأحمر ندب صهره أبا الحسن لحكم وادى آش وندب أبا محمد لحكم مالقة . ولما توفى أبو الحسن خلفه فى حكم وادى آش ولده أبو اسحق . وتمكن نفوذ بنى اشقيلولة فى الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر، ولكن أطماعهم كانت تتجاوز حكم المدن ، وكان ابن الأحمر فى أواخر عهده يستريب بهم ويخشى بأسهم وقد ظهرت أعراض انتقاضهم غير بعيد (٢) .

---

(١) اللمحة البدرية ص ٣٥ ؛ وراجع الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، وهو لمؤلف مجهول (طبع الجزائر سنة ١٩٢٠) ص ٦٠ وفيه أن دخول ابن الأحمر مدينة غرناطة كان فى آخر رمضان سنة ٦٣٦ هـ . ولكن معظم الروايات على أن دخوله كان فى ٦٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٧ .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة من غمر الفوضى التى سادت الأندلس على أثر انهيار دولة الموحدين . ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، وكان محمد بن يوسف يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعاً وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة ، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولا سيما فى الجنوب . ولم يك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة فى نفوس المتغلبين والطامعين ، وكان أصاغر الزعماء والحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وحدث ذلك بنوع خاص فى مرسية وشرق الأندلس حسبما أشرنا من قبل ؛ حيث ارتضى والى مرسية محمد بن على بن هود وحكام لقنت وأريولة وقرطاجنة وجنجاله وغيرها أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا له الجزية ، وأن يبقوا متمتعين فى ظله بحكم مدنهم ومواردهم . وعلى أثر ذلك سلمت مرسية ودخلها الفونسو ولد فرديناند الثالث ملك قشتالة فى احتفال فخم (٦٤١ هـ — ١٢٤٣) . وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية فى تلك الآونة العصيبة يذهب إلى حد التضحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات ، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، وكان فرديناند الثالث يرى فى ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه . وكان ابن الأحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزماً وإقداماً لمحاربة النصارى واستخلاص تراث الوطن من أيديهم ؛ فما كاد يستقر فى غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى ، وسار إلى قلعة مرطوش فى قوة كبيرة وضرب حولها الحصار (٦٣٦ هـ) ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار واشتبك مع النصارى فى معركة أحرز النصر فيها . على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة فى سير الحوادث . وكان فرديناند الثالث يرقب نهوض هذه القوة الأندلسية الجديدة بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها ؛ فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية والاستيلاء على مرسية حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر ، وبعث لقتاله جيشاً قوياً

بقيادة ولده الفونسو . واستولى النصارى على حصن أرجونة وعدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفى العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها حتى كادت تسقط فى أيديهم . فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره وقدم إليه طاعته ، واتفق على أن يحكم أراضيه باسمه وفى ظله وأن يؤدى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس) وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش . وسلم إليه جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر رهينة بحسن طاعته ، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها(١) . وفى مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة ، وأقره على ما بقى بيده من القواعد والحصون (٦٤٣هـ — ١٢٤٥م)(٢). وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وقبل ابن الأحمر أن يضحى استقلاله السياسى وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضيه ، وتطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود .

وفى تلك الفترة العصيبة كانت الفتنة تمزق ما بقى من أوصال الأندلس ويهرع الزعماء المسلمون الأصاغر إلى مصانعة ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، وكانت اسبانيا النصرانية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية كلها ، ولم يبق عليها سوى التهام الولايات الغربية . ولم يكن مثل ابن الأحمر وهو أعظم زعماء الأندلس يومئذ ، مشجعاً على غير هذا المسلك المؤلم . ففى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) نزل ابن محفوظ لملك قشتالة عن مدينة طلبيرة ، والعلى ، وشلب ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة(٣) . وكان فرديناند الثالث يتأهب فى تلك الآونة ذاتها لافتتاح إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية . وكان قد استطاع قبل ذلك بأشهر أن يستولى على مدينة قرمونة

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والفرنتيره Fronterra هى المنطقة الساحلية الواقعة غربى الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر قادس جنوباً حتى طرف الغار .

(٢) الذخيرة السنية ص ٧٢ ؛ واللمحة البدرية ص ٣٦ .

(٣) الذخيرة السنية ص ٧٦ .

حصن إشبيلية الأمامى ؛ وذلك بمعاونة محمد بن الأحمر وفقاً للتحالف المعقود بينهما ؛ ثم عمد بعد ذلك إلى افتتاح باقى الحصون القريبة من إشبيلية . واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية . ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧م (٦٤٥هـ) حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الواقعة حول إشبيلية . وانتسف سائر البسائط والضياع القريبة منها .

وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية فى أغسطس سنة ١٢٤٧ م (ربيع الثانى سنة ٦٤٥ هـ).وكان زعيم المدينة وحاكمها يومئذ أمير من الموحدين هو السيد أبو عبد الله . ويعاونه فى تنظيم الدفاع عنها ابن أخيه أبو الحسن بن أبى على حاكم قرمونة السابق . وصمم أهل إشبيلية على الدفاع عن مدينتهم جهد استطاعتهم ، وحشد فرديناند من جانبه حول المدينة المحصورة قوات عظيمة ، وتسابق الأمراء والأشراف والأحبار النصارى فى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية الخطيرة ، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة فى حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها . وهكذا أرغم هذا الزعيم المسلم على أن يشرب الكأس المرة إلى الثمالة فى محالفة أعداء وطنه ودينه . وتقول بعض الروايات الإسلامية إن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو إلى الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه ونكولهم عن طاعته(١). وطال الحصار حول إشبيلية وأخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وكانت المدينة المحصورة تتلقى من وقت إلى آخر من عدوة المغرب بعض المؤن عن طريق الوادى الكبير . ولما تفاقمت أهوال الحصار وضع شاعر إشبيلية يومئذ ابراهيم بن سهل الإشبيلى الإسرائيلى قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل العدوة ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول :

وردا فمضمون نجاح المصدر ... هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر ... يبدو لكم بين القنا والضُّمَّر
خلوا الديار لدار عز واركبوا ... عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى ... ترووا بماء الحوض غير مكدر

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابراً عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم بيعوا وبهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ولكم تمهد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ذاك البناء بكل لدن أسمر(١)

وطال حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً ، وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد فى الدفاع عن حاضرتهم ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً أمام عزم النصارى وتصميمهم . وأخيراً اضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم ، وسلمت إشبيلية لفرديناند الثالث على أن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يخيروا فى البقاء بالمدينة أو مهاجروا منها . وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ (٢٧ رمضان سنة ٦٤٦هـ) دخل النصارى مدينة إشبيلية بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون وحكمها الموحدون زهاء قرن . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت منها معالم الإسلام بسرعة ، وتفرق معظم أهلها المسلمين فى الحواضر الإسلامية الباقية ، ولاسيما غرناطة . وكان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية الواقعة فيما بينها وبين مصب الوادى الكبير . وهكذا استولى النصارى تباعاً على شريش وشذونة وقادس وشلوقة وغليانة وروضة وثغر شنتمرية ، وروطة والأرك وغيرها من قواعد الوادى وحصونه ؛ وسلم ابن محفوظ فى الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادى أنة وشنتل والحصين وشلطيش ، على أن يستبقى حكم لبلة وأحوازها(٢). وعاون ابن الأحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس . وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضى الإسلامية الواقعة غربى ولاية الأندلس ، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة .

وكان موقف ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفا شاذا مؤلما ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادى والأدبى ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ، وقد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام فى الأندلس ، يهرعون إلى احتذاء مثاله وإلى الانضواء تحت لواء

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى الذخيرة السنية ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

ملك قشتالة . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر فى تاريخ الأندلس منذ الطوائف حيث نرى كثيرا من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم فى الدين ، احتفاظا بالملك والسلطان . ولكن ابن الأحمر كان يقبل هـذا الوضع المؤلم إنقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذا لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك انه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ، وإدماج ماتبقى من تراثها وأراضيها فى مملكة موحدة تكون مُلكا له ولعقبه . ولم تكن تحدوه رغبة فى توسع يجعله إلى الأبد أسيرا لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف . بل كانت تحدوه قبل كل شئ رغبة فى الاستقلال والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية فى ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصارى ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يتفطر حزنا وأسى .

على أن ابن الأحمر لم يكن يعتزم المضى فى ذلك المسلك المؤلم المهين إلى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت إلى آخر بأن يحطم هذه الأغلال الشائنة التى صفدته بها محالفة النصارى ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه صلبت قناته وذكا عزمه ، وكان يتجه ببصره إلى ماوراء البحر إلى إخوانه فى الدين فى عدوة المغرب ، وكان جريا على السياسة الأندلسية المأثورة يرى فى ملوك العدوة عضداً له قيمته فى مغالبة النصارى . وكانت حوادث المغرب تتمخض فى ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هى دولة بنى مرين . ومع أن الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بنى مرين الناشئة (١) كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة ، فان كتائب المجاهدين من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس . وعبر القائد أبو معرف محمد بن ادريس بن عبد الحق المرينى وأخوه الفارس عامر البحر فى نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين ، وكانت حوادث الأندلس المؤسية تحدث وقعها العميق فى المغرب ، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم ، والاستنصار بأهل العدوة

---

(١) سنعود الى التحدث عن قيام دولة بنى مرين فى موضع آخر .

إخوانهم فى الدين ، وكان علماء المغرب وخطباؤها وشعراؤها يبثون دعوة الغوث والإنجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها أبو الحكم مالك بن المرحل ، وقرئت فى جامع القرويين بفاس فى يوم جمعة من أيام سنة ٦٦٢هـ ، وبكى الناس تأثرا لسماعها ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فإنكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشرة ... برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه ... لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ماهى إلا قطعة من أرضكم ... وأهلها منكم وأنتم منهم(١)

وكان لاهتمام المغرب بانجاد الأندلس صداه . وكان ابن الأحمر قد بدأ فى الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م) استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر ، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه ، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها فى ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢ هـ) استطاع قائدهم الفارس عامر بن ادريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى (٢) .

وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة . ولكن الحوادث مالبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى . ذلك أن ملك قشتالة (الفونسو العاشر) خشى هذه البادرة على خططه وغزواته ، وخشى بالأخص ان تتضاعف الأمداد من وراء البحر فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبته وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية . ففى أواخر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى ، ودخلها دون جيل قائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيرا منهم . وفى العام التالى (٦٦٣ هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة فى العمل على افتتاح مابقى من القواعد الأندلسية ، وسرى

---

(١) راجع الذخيرة السنية ص ١٠٨ — ١١٢ حيث يورد القصيدة بأكملها .
(٢) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

الخوف إلى نواحي الأندلس ، وعادت الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه بالمبادرة إلى امداد الأندلس وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصا وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر فى ذلك الوقت على يد دون نونيو دى لارا (دونته) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣ هـ — ١٢٦٤ م) . وكتب الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبته رسالة طويلة إلى قبائل المغرب يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد فى سبيل الأندلس ، وفيها يقول : « ولا تخلدوا بركون إلى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب فى حشده ، فالبدار البدار بإرهاب الحد وأعمال الجهاد فى نيل الحد . . »(١) وتكرر مثل هذا الصريخ إلى سائر أمراء إفريقية ، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر صاحب تونس ، فبعث اليه المستنصر هدية ومالا لمعاونته(٢) . ولكن هذه المساعى لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة ، وبقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوى بمفردها وتتوجس من سوء المصير .

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة فى مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) عن عدد كبير من البلاد والحصون منها شريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل أن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ومعظمها فى غرب الأندلس (٣) ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى .

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة فى نحو ثلاثين عاماً فقط فى وابل مروع من الأحداث والمحن ، واستحال الوطن الأندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية ، إلى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة . وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة ، التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى

---

(١) راجع هذه الرسالة فى الذخيرة السنية ص ١١٣ — ١٢٢ .
(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .
(٣) راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ .

النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لإنجاد الأندلس وغوثها ، واليك بعض ما جاء فى هذه المرثيـة الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شيء اذا ما تم بنقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة ... اذا نبت مشرفيات وخرصان

* * *

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خاليـة ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

* * *

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عبـاد الله إخوان (١)

* * *

(١) راجع هذه المرثية البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج٢ ص٥٩٤ و٥٩٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص٤٧ — ٥٠ . وقد التبس الأمر على المقرى فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة =

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه فى توطيد مملكته واصلاح شئونها ؛ ولم تقع فى تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً . ولكن ظهرت عندئذ أعراض الانتقاض على بنى أشقيلولة أصهار ابن الأحمر ومعاونيه ؛ وكان ابن الأحمر قد زوج فى سنة ٦٦٤ هـ إحدى بناته لابن عمه الرئيس ابن سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فنمى ذلك إلى واليها أبى محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله تعاونه قوة من حلفائه النصارى . وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ولكنهم ارتدوا عنها خائبين (٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م) . وعاد ابن الأحمر فسار إلى مالقة مرة أخرى فى سنة ٦٦٨ هـ ولكنه لم ينل منها مأرباً (١).

وفى تلك الآونة عاد النصارى إلى التحرك والتحرش بالمملكة الإسلامية ، وسار ملك قشتالة إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها . وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم فى القضاء على ما بقى من ديار الأندلس ، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة إذ توفى بعد ذلك بقليل .

= والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧) وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطه وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لأنه توفى قبل سقوطها (أى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرى بأن ابى البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أنه يبدو من سياق القصيدة ، وذكر القواعد الأندلسية التى تبكيها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ أن الشاعر قد عاش فى هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية ، وقد كتب صاحب الذخيرة (وهو مؤلف مجهول) مؤلفه فى عصر السلطان أبى سعيد المرينى (٧١٠ — ٧٣٣ هـ) وأورد فى كتابه قصيدة أبى البقاء بأكملها ، وهو دليل قاطع على أن ناظمها عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ — ١٢٩)

(١) الذخيرة السنيه ص ١٢٥ و ١٢٩ .

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف الجهاد والمقدرة على التنظيم . وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير وجعله دار الملك وجلب له الماء وسكنه بأهله وولده . وأما تسميته بابن الأحمر فقد اختلفت فى شأنها الرواية . ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى نضارة وجهه واحمرار شعره ؛ ويرى البعض أنها أُسبغت عليه لإنشائه حصن الحمراء ؛ ولكن سوف نرى عند الكلام على تاريخ الحمراء أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرية ببضعة قرون ، وأنه لا صلة بين هذا الاسم الذى أطلق على الحصن والقصور الملكية التى أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببنى الأحمر ؛ كما أنه ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب إليها بيت غرناطة الملكى (١). وكان ابن الأحمر يباشر الأمور بنفسه ويدقق فى جمع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشعراء . وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى للاسترشاد برأيهم ونصحهم (٢). وكان فى مقدمة وزرائه أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيان ، وهو الذى مكنه من التغلب عليها ، والقائد أبو عبد الله محمد بن محمد الرميمى ولد صاحب ألمرية السابق .

وإليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشئ مملكة غرناطة وظروف مملكته : « كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جرثياً بعيد الغور ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى طبيعة خبيثة وضيعة ، ولكن إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً

---

(١) راجع مقدمة أطلس « الحمراء » Alhambra الذى وضعه Owen Jones & Jules Goury وكتبها المستشرق جاينجوس (London 1842) ص ٥ الهامش . وتسمى الدولة النصرية على الأغلب بدولة بنى الأحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم (ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها) .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٣١ .

على مقارعتهم. فى العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات ومجاملات الفروسية وشروط السلم الشريف تفهم بطريقة ناقصة وكثيراً ما تنتهك بعمد . وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة . وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير . أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه ، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته ، ولكنها كانت تغدو أقوى ويغدو الدفاع عنها أيسر كلما انكمشت حدودها . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة ، وصفات هى أثمن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لايقهر ببغض النصرانية . وكان الاندماج السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة فى حماية الجبال التى تظلل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون فى حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة » (١).

وتوفى محمد بن الأحمر فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م) على أثر سقطة من جواده وقد قارب الثمانين من عمره . وكانت مملكة غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى نصر الفتى على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة فى بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم . ولذا لم نشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى .

---

(١) Scott: The Moorish Empire in Europe, V. II. p. 433-34

الفصل الثالث

طوائف الأمة الأندلسية

فى عصر الانحلال

مملكة غرناطة وحدودها . عناصر سكانها . المدجنون . تاريخهم وحياتهم فى ظل الممالك النصرانية . اضطهادهم على يد الكنيسة . نشاطهم وتفوقهم . وثيقة اسبانية عربية تكشف عن أحوالهم . النصارى المعاهدون وأحوالهم فى ظل الحكومة الاسلامية . تعصبهم وخياناتهم . نزوح المسلمين الى غرناطة . عناصر الأمة الأندلسية . المولدون . اليهود . الشعب الغرناطى . صفاته وخلاله .

كانت مملكة غرناطة عندئذ تشمل القسم الجنوبى من الأندلس القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب حتى البحر الأبيض المتوسط ، وتمتد من الشرق فيما بين مدينة بسطة وثغر ألمرية ، غرباً حتى ثغر مالقة ورندة وأنتكيرة ، وتخترقها من الوسط جبال سيرانيفادا (جبل شلير) الشاهقة ، وهضاب البشرات الوعرة وبسائطها الخضراء ؛ وأهم ثغورها ألمرية ومالقة ؛ وأهم قواعدها عدا غرناطة بسطة ووادى آش ولوشة وألحامة (الحمة) ورندة . وكانت خواصها الطبيعية التى تجمع بين مزيج مدهش من المروج والوديان الخصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة ، ينميها ويضاعفها الشعب الأندلسى الموهوب بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة . وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية أسباب القوة والمنعة والرخاء .

وقد رأينا فيما تقدم أن كورة إلبيرة وهى التى غدت فيما بعد كورة غرناطة ، كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد لبثت أعقاب هذه البطون مدى عصور كثيرة فى تلك الولاية . ولما اضطرمت الفتن بالأندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الأخرى من البحر على قواعد غرناطة ، ثم غدت مدينة غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصراً بارزاً فى سكان هذه المقاطعة . وكانت

الثغور الجنوبية بطبيعة الحال منزل البربر كلما عبروا إلى الأندلس . وخصوصاً أيام المرابطين والموحدين . وكانت طوائف كبيرة من الغزاة تتخلف فى هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها بجذبهم خصبها ونعماؤها . ولما أخذت قواعد الأندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى . كان يهرع إلى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التى آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام على التدجن والبقاء تحت سلطان النصارى . على أنه بقيت فى القواعد والثغور التى استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعى العيش على البقاء فى الوطن القديم ، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد . وأولئك هم المدجنون(١) (أو بالاسبانية Mudijares) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو بعبارة أخرى منذ كثر استيلاء النصارى على أراضى المسلمين ، وكثر عدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم اسبانيا النصرانية . ولهذا المجتمع الإسلامى الإسبانى تاريخ طويل مؤثر . فقد لبث المدجنون عصراً يتمتعون فى ظل ملوك قشتالة وأراجون بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم فى العصور الأولى قضاة منهم يحكمون فى سائر المنازعات التى تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية ؛ أما المنازعات التى تقع بين مسلم ونصرانى فكان ينظرها أحياناً قاض نصرانى أو تنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين . وكان من امتيازاتهم أن لا يدفعوا من الضرائب غير ما كانوا يؤدونه من قبل للملوكهم ، ثم ترك هذا الإمتياز بمضى الزمن . وأصدر الفونسو العاشر فى سنة ١٢٥٤ م لسكان إشبيلية امتيازاً يخولهم حق شراء الأراضى من المسلمين فى منطقتهم مما يدل على أنه قد سمح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء فى العقارات . فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية فى أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين واليهود شراء الأراضى من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيما بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضاً بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية

---

(١) من دجن وتدجن أى أقام ، ومصدره الدجن والتدجن ومنه دواجن البيوت وهى طيور وحيوانات أليفة مقيمة .

ويعتبر الإعفاء منها امتيازاً خاصاً . ثم أعفى المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سنوية يؤدونها ، وكان انضمامهم إلى الجيوش النصرانية يقع فى حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الإسبان على القواعد والثغور الأندلسية ، كان يخصص للمدجنين فى كل مدينة مفتوحة حى خاص لإقامتهم ، يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخم ، وكان هذا هو شأن اليهود أيضاً حيث كانوا يلزمون بالإقامة فى حى خاص بهم (١) .

وهكذا لبث المدجنون عصراً يتمتعون فى ظل الحكم الإسبانى بامتيازات كثيرة ، ويعيشون فى نوع من الأمن والدعة ، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية العنيفة . ولكن هذه الحال أخذت فى التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية فى أراضى الأندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين فى مختلف المناطق المفتوحة . وكانت الكنيسة تبغض هذه الطوائف الإسلامية القائمة فى قلب المجتمع النصرانى ، وتنقم على المدجنين هذه الدعة وهذا التسامح ، وترى فى احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوعاً من التحدى المذموم ، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراجون تسامحهم فى معاملتهم ، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الإنتقام والعنف ازاء أولئك الرعايا المسالمين . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين والحض على استرقاقهم أو تنصيرهم ، ومن ذلك ما أمر به البابا أنوسان الرابع فى سنة ١٢٤٨ م ، ملك أراجون جايم الأول من وجوب استرقاق المسلمين فى الجزائر الشرقية . ولكن جايم لم يأبه لذلك الأمر . ولما افتتح ثغر بلنسية فى سنة ١٢٣٨ م سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين . وكان ملوك قشتالة وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم . ذلك لأن المدجنين كانوا بين رعاياهم أفضل العناصر وأنشطها وأكثرها دأباً ومثابرة ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الأيمن فى زراعة أراضيهم واستغلالها . وكانوا يستأثرون بالتفوق فى العلوم والفنون والمهن . وكانوا أبرع الأطباء والمهندسين والبنائين . وكان لهم الفضل الأول فى إدخال محاصيل عديدة جديدة فى اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الرى التى أنشأوها

---

(١) Dr. H. Ch. Lea: History of the Inquisition in Spain V. I. p. 62-64

تشهد بعبقريتهم فى هذا المضمار . وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الإسبانية . وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة . وكانت صناعاتهم ولا سيما المنسوجات القطنية والحريرية ، والفخار والخزف والجلود . نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الأوربية ، فلم يك ثمة أشهر من خزف مالقة ولا أقمشة مرسية ولا حرير ألمرية وغرناطة ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلدية . وكانت بالمنسية التى تضم كتلة كبيرة من المدجنين تعتبر من أغنى ثغور أوربا بما تنتجه من السكر والنبيذ وغيرها من المنتجات العديدة . وكان المدجنون مثال النشاط والدأب . يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة . ولم يكن بينهم متسولون إذ كانوا يعولون فقراءهم . وكانوا مثلا للنظام والسكينة . يحسمون منازعاتهم بأنفسهم . وعلى الجملة فقد كانوا يؤلفون أصلح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أى البلاد (١) .

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم . وكانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى أوائل القرن الرابع عشر تعيش فى أنحاء كثيرة من اسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها (٢) . وكانت البابوية تسير على

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain V. II. p. 66, 67 ; Dr. Lea : The Moriscos of Spain p. 57.

(٢) نشر المستشرق ديرنبور صورة وثيقة عربية اسبانية مؤرخة فى سنة ١٣١٢ م بعنوان : Une Charte Hispano-Arabe de l'année 1312 ، وقد عقدت بين جماعة من المدجنين المقيمين بناقار وبين رئيس مستشفى يوهان دى أورشليم النصرانى . وفيها تبين حقوق كل طرف وواجباته . ومما رتب فيها على المدجنين « أن تعطوا للاشبطال Hospital المذكور الثلث من كل ماتجمعوا من طعام ومن عنب ومن زيتون ومن فول ، ومن كل نوع من كل ما تجمعوا ومن كل فاكهة . وهذا كله أن يعملوه فى عهد وميثاق وصدق . وكل مسلم أن يحبس دار ونار فى أسران المذكور أن يقدم لقائد اسران الذى يكون على الاشبطال المذكور ربع من قمح ، النصافة من قمح والنصافة من شعير فى شهر أغشت من كل عام طول الأبد ، وكل دار أن يعطى للاشبطال المذكور أربعة مرافق من تين فى كل عام ، وكل عامر مسلم ومسلمين فى الموضع المذكور أى يعملوا كل نفقة أن يحتاج فى الموضع المذكور .. » ثم تقول الوثيقة :

« أن يطبخوا المسلمين المذكورة خبزهم فى فرن الاشبطال المذكور عن دايم الدهر ، وأن يعطوا من ستة عشر خبزة واحدة ، ولا يقطعوا أشجار ، ولا يقلعوا كرمان دون أمر قائد اسران ...

« يكون جميع خصماتكم لحكمه (أى القمندور) وان كان تريدوا تعملوا عند حكمه ارتفاع (استئناف) أن تعملون أمام كل قاضى أن يكون مسلم من تطيلة كما هو سنتكم وشرعتكم ، وأن =

خطتها من التحريض عليهم والمطالبة بتجريدهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الإسبانية من جانبها هذا التحريض . ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها إلا ببطئ ، ولم يتسع نطاقها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر عندما أشرفت الدولة الإسلامية فى غرناطة على نهايتها. وكان قيام مملكة غرناطة فى ذاته عنصراً من عناصر تكييف السياسة الإسبانية إزاء المدجنين . ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ما كان يحدوهم من رغبة المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بايثار الرفق فى معاملة المدجنين ، كانوا أيضاً يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين فى غرناطة ، وفيما وراء البحر فى بلاد المغرب ، بل وفى الممالك الإسلامية الأخرى مثل مصر وتركيا . على أن العوامل الاجتماعية والمحلية كانت من جهة أخرى تحدث أثرها فى مجتمع المدجنين . ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بجيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم ، ومميزاتهم الجنسية والقومية ، والاندماج شيئاً فشيئاً فى المجتمع الذى يعيشون فيه ؛ وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماؤهم يكتبون كتب الشريعة بالقشتالية للرجوع اليها . وقام أيضاً بين المدجنين أدب قشتالى استمر عصوراً حتى بعد اخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعى تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصرانى القديم(١) .

= تكونوا أجسامكم وأموالكم ملتزمة للاشبطال المذكور ، وذلك بشرط أن لايكن لأحد منكم أن يخرج من الموضع المذكور ، وكل واحد منكم لايبيع ولايرهن ميراث الاشبطال لنصرانى أو يهودى »

ونص فى نهاية الوثيقة أنها ختمت بخاتم دون بطره غرسيس ملك نبره (اناقار) ، وارخت فى الثامن عشر من فبراير سنة احد عشر وسبعمائة هجرية وهى توافق سنة ١٣١١م . ووقعها من المدجنين سبعة منهم موسى الليلى المجتى والمراتب بن وليـــد وعيسى بن موسى ولب يارس دريس . ووضعت أصولها الاسبانية فوق كل عبارة عربية .

وتلقى هذه الوثيقة العربية الاسبانية بالرغم من ركاكتها ضوءاً على أحوال المدجنين ، وظروف حياتهم فى هذا العصر ، وظاهر منها أن المدجنين كانوا قد بدأوا يومئذ يفقدون كيانهم الاجتماعى وامتيازاتهم القديمة .

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 65

كان نظائر هؤلاء الأندلسيين المدجنين . جمهرة من النصارى الإسبان يعيشون فى القواعد والثغور الإسلامية ويعرفون بالنصارى المعاهدين (أو بالإسبانية Mozarabes) وقد لبثوا عصوراً يتمتعون فى ظل الحكم الإسلامى بضروب الرعاية والتسامح . وكانت الحكومات الأندلسية حتى فى أزهى عصورها تحافظ على سياسة التسامح التى اتبعت ازاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق وتحترم شعائرهم الدينية وتقاليدهم القومية ، وتجانب أية محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام. وكان من ضروب هذه الرعاية أن أنشىء فى ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) يتولاه كبير من الأحبار النصارى يطلق عليه « قومس أهل الذمة » . وهكذا استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ومميزاتهم القومية والاجتماعية . وكانت حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيراً ما كان يعهد اليهم بمناصب القيادة والوزارة أو ينتظمون فى البلاط والحرس الملكى . ومع ذلك فقد كانت منهم دائماً طوائف متعصبة تسىء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكيد للإسلام ودولته ؛ ومن ذلك ما حدث فى عهد عبد الرحمن بن الحكم (أواسط القرن التاسع الميلادى) من الحوادث الدموية التى أثارها تعصب النصارى (١). وهكذا فان النصارى المعاهدين لم يشعروا دائماً بالولاء والإخلاص للدولة الإسلامية التى يعيشون فى ظلها والتى توليهم كثيراً من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائماً يتربصون بها وينتهزون الفرص لمناوأتها والكيد لها ، ويستعدون عليها الوطن القديم ، كلما اضطربت شئونها وعصفت بها عواصف الثورة والحرب الأهلية . وكانت أعظم خيانة ارتكبوها من هذا النوع فى أواخر أيام المرابطين حينما دعوا الفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، إلى أن يسير إلى غزو الأندلس بعد ما لاح من انحلال سلطان المرابطين فيها ؛ واستجاب ملك أراجون لتحريضهم وسار مخترقاً الأندلس بجيوشه ، والنصارى المعاهدون فى كل قاعدة ينهضون إلى معاونته بوسائلهم وذلك فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) حتى انتهى إلى فحص غرناطة وحاصرها حيناً ثم غادرها إلى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم ، ولبث حيناً يعيث فى تلك

(١) راجع كتابى « دولة الاسلام فى الأندلس » ص ٢٦٠ — ٢٦٢ .

الأنحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى شد أزره ، ويمدونه بالأقوات والمؤن . ثم عاد ثانية إلى اختراق الأندلس إلى أراجون وقد انضم إلى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين . ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين إلى خطر بقاء أولئك المعاهدين فى الثغور والقواعد الأندلسية ، فانقلبت الحكومة الإسلامية إلى مطاردتهم ، وأفتى القاضى أبو الوليد بن رشد بادانتهم فى نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريبهم وإجلائهم عن الأندلس ، وأخذ أمير المرابطين على بن تاشفين بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك فى أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطقس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيراً منهم إلى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سبباً فى تمزيق عصبتهم واضعاف شوكتهم(١).

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين فى القواعد الأندلسية الذاهبة كانت تؤثر الإلتجاء إلى أرض الإسلام والتشبث بلواء الدولة الإسلامية . وهكذا أخذت مملكة غرناطة تموج منذ أواسط القرن السابع الهجرى بسيول الوافدين عليها من بلنسية ومرسية وقرطبة وإشبيلية وغيرها ، وهكذا غدت المملكة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين بعد أن احتشدت بقايا الأمة الأندلسية الصغيرة فى تلك المنطقة الضيقة . ومن المرجح أن مملكة غرناطة كانت تضم فى عصورها الأخيرة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس ، وكانت الأمة الأندلسية عندئذ خليطاً من أعقاب العرب والبربر والمولدين أو المسلمين الإسبان الذين أسلموا عند الفتح . وقد نما أولئك المولدون بمضى الزمن حتى غدوا عنصراً هاماً بين سكان الأندلس . وكان العرب والبربر ينظرون اليهم بشئ من الريب . وكانوا بالرغم من تمتعهم فى ظل الحكومات الإسلامية بنفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المسلمين ينزعون إلى الثورة فى أحيان كثيرة ، وقد كان لهم شأن يذكر فى إضرام بعض الثورات الخطيرة التى اضطرمت ضد حكومة قرطبة مثل ثورة الربض وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام ، وثورة بنى قسى فى الثغر الأعلى وقد كان جدهم الكونت قسى قوطيا نصرانياً . وكان المولدون أعوان ابن حفصون أعظم وأخطر ثوار

---

(١) راجع الاحاطة ج ١ ص٢١ و٢٣ ؛ والحلل الموشية لابن الخطيب أيضا ص ٧٠ و٨١ ؛ وتاريخ المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٥٥ و١٥٧ .

الأندلس ، وهو الذى استطاع بموازرتهم ومؤازرة النصارى المعاهدين أن يؤسس مدى حين مملكة مستقلة فى منطقة رندة (أواخر القرن التاسع الميلادى) . وكان ابن حفصون مولداً يرجع إلى أصل نصرانى . على أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد الغزاة القادمين من إفريقية . فقد وقفوا إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان زعيم الثورة ضد المرابطين رجل من أصل نصرانى هو محمد ابن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويلبس الملابس الإفرنجية ويحشد فى جيشه كثيراً من الضباط والجند النصارى . ولم يكن للعاطفة الدينية فى تلك العصور وفى تلك الظروف دائماً كبير أثر (١) . بل كانت تغلب عليهم فى معظم الأحيان عواطف القومية والمصلحة الخاصة . كذلك كان تمثل بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية معظمهم من طائفة « السفرديم » القديمة أو اليهود الإسبان . وكان لليهود فى ظل معظم الحكومات الإسلامية نفوذ يذكر . وكان منهم أعلام فى العلوم والآداب مثل الرئيس موسى بن ميمون الذى غادر الأندلس إلى الشرق فى أواسط القرن السادس الهجرى فراراً من اضطهاد الموحدين . وكان لهم مثل هذا النفوذ فى مملكة غرناطة ومنهم معظم أطباء البلاط والخاصة .

وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين فى مملكة غرناطة ، ولاسيما بعد أن نزح اليها على أثر سقوط القواعد الأندلسية فى يد النصارى كثير من سادة البطون العربية القديمة . ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الأنساب العربية العريقة التى كان ينتمى اليها أهل غرناطة . ويصف الغرناطيين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، ونضرة اللون ، والإناقة والفصاحة والإباء ، ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ، ونبل الخلال . أما الجند فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ولاسيما من قبائل زناتة ومغراوة وبنى مرين . ويرجع ذلك إلى أن طوائف البربر التى تخلفت منذ عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، كان أغلبها من الجند ، وقد بقيت على عهدها توثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية .

وهكذا كان الشعب الأندلسى حين آذنت شمسه بالمغيب كما كان يوم مجده ،

---

(١) Dr. Lea: History of the Inquisition, V. I. p. 50

يتكون من هذا المزيج العربى الإفريقى الذى أطلق عليه الغربيون عبارة « مسلمى الأندلس » The Moors .

وكانت الأمة الأندلسية تتمتع حتى فى عصورها الأخيرة بحضارة زاهرة كانت مثار التقدير والإعجاب فى سائر الأمم الأوربية ، وكان يحج إلى معاهدها العلمية كثير من الطلاب من مختلف أنحاء أوربا (١) .

وكان الشعب الغرناطى من أهل السنة يدين بمذهب مالك ، وهو المذهب الذى غلب على الأمة الأندلسية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى أعنى منذ عصر هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، ولم تتأثر غرناطة فى نزعتها المذهبية ولا تقاليدها الدينية السمحة ، بما توالى عليها من سيادة المرابطين والموحدين حيناً من الدهر .

(١) راجع الاحاطة ج ١ ص ٣٢ — ٣٨ ؛ واللمحة البدرية ص ٢٧ و ٢٨ .

الفصل الرابع

طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية

المعركة الخالدة بين الأندلس واسبانيا النصرانية . تضاؤل قوة الأندلس . قيام مملكة غرناطة . مرحلة جديدة فى الصراع . طبيعة هذا الصراع . العوامل القومية والدينية . نزعة الجهاد عند المسلمين . النزعة الصليبية عند النصارى . قيام الجماعات الدينية المحاربة فى اسبانيا . ضعف العامل الدينى فى بداية النضال . السيد الكمبيادور . المرتزقة النصارى فى الجيوش الاسلامية . التجاء الأمراء النصارى الى حماية الملوك المسلمين . زواج الأمراء المسلمين بنساء من النصارى . ابن مردنيش وتشبهه بالقشتاليين . التحالف بين المسلمين والنصارى . التعاون بينهما أيام السلم . الفروسة وعلائق المودة . طبيعة حرب الاستعادة . صبغتها الدينية فى مراحلها الأخيرة .

يبدأ بقيام مملكة غرناطة فوق أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى فى اسبانيا ، طور جديد من أطوار الصراع الخالد بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، أو بعبارة أخرى طور جديد فيما يمكن أن نسميه فى تلك المرحلة المتأخرة من تاريخ الأندلس حرب الإستعادة القومية

وقد بدأت اسبانيا النصرانية حرب الاستعادة القومية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، أعنى حينما انهارت الدولة الإسلامية القوية وانتثرت إلى عدة دويلات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيما حتى لاح لاسبانيا النصرانية أن عهد الدولة الإسلامية أوشك على الزوال ، وأن الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاسمة . وكانت مملكة قشتالة تتزعم اسبانيا النصرانية يومئذ وتقودها فى ميدان الصراع مع المسلمين ، وكان ملكها الفونسو السادس يعمل بذكاء لاستغلال منافسة الدول الإسلامية وتفرق كلمتها ، ويغلب أميرا على أمير حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحى بن ذى النون وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت طليطلة أول

قاعدة إسلامية عظيمة تسقط فى يد اسبانيا النصرانية ، وكان سقوطها نذيراً خطيراً للأمة الأندلسية يذكرها بقوة العدو المتربص بها ، ويحذرها عاقبة التنابذ والتفرق ، فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة باخوانهم فيما وراء البحر، فى عدوة المغرب . وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب وبدت دولتهم قوية شامخة ، فاستجاب زعيمهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر بقواته إلى الأندلس ، وكانت هزيمة اسبانيا النصرانية على يد جيوش المغرب والأندلس فى موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) فاتحة حياة جديدة للأمة الأندلسية ، وبالرغم من أن المرابطين استولوا على الأندلس بعد ذلك بأعوام قلائل وبسطوا حكمهم عليها ، فقد استمد الإسلام فى اسبانيا من قوتهم قوة جديدة ، وعاد الصراع الخالد بين الدولة الإسلامية وبين اسبانيا النصرانية يضطرم فى نوع من تكافؤ القوى . ولما اضمحل سلطان المرابطين فى الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاماً وخلفهم الموحدون فى مُلك المغرب والأندلس ، لبثت الدولة الإسلامية حقبة أخرى فى شبه الجزيرة عزيزة قوية الجانب نوعاً ، وإن كانت قد فقدت فى تلك الفترة بعض قواعدها التالدة مثل سرقسطة التى سقطت فى يد النصارى سنة ٥١٢هـ (١١١٨ م) . وأحرز الإسلام للمرة الثانية على النصرانية نصراً حاسماً فى موقعة الأرك الشهيرة التى انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور ملك الموحدين على جيوش الفونسو ملك قشتالة (٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م) وانكمشت اسبانيا النصرانية مدى حين ، ولكنها عادت فاجتمعت كلمتها تحت لواء الفونسو ملك قشتالة ، وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء المسلمين بقيادة ملك الموحدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وأصيب المسلمون فى موقعة العقاب بهزيمة فادحة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢م) وأخذ سلطان الموحدين فى الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدا مصير الأندلس يهتز فى يد القدر ، وبدت اسبانيا النصرانية يومئذ فى أوج سلطانها وقوتها . ولم تمض فترة وجيزة أخرى حتى بدأت قواعد الأندلس العظيمة حسبما بينا من قبل تسقط تباعاً فى يد النصارى ، قرطبة (٦٣٣ هـ) فبلنسية (٦٣٦ هـ) فدانية (٦٣٨ هـ) فمرسية (٦٤١هـ) فإشبيلية (٦٤٤ هـ) . وهكذا سقطت عدة من قواعد الأندلس التالدة ومنها عاصمة الخلافة القديمة فى يد اسبانيا النصرانية فى مدى عشرة أعوام فقط ، ولقيت الأندلس أعظم محنها

فى تلك الفترة العصيبة ، ولاح لاسبانيا النصرانية أن حرب الاستعادة القومية لن تلبث حتى تتوج فى أعوام قلائل أخرى ، بالقضاء على ما بقى من تراث الإسلام فى الأندلس.

ولكن شاء القدر أن تتمخض هذه المحنة التى غمرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عن قيام مملكة إسلامية جديدة هى مملكة غرناطة ، تتمتع بالرغم من صغرها بكثير من عناصر الفتوة والحيوية . وفى الوقت الذى خيل فيه لاسبانيا النصرانية انها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية ، كانت بذور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوطد ، واذا بالنهاية المرجوة تستحيل إلى بداية جديدة . ولقد استطالت هذه المرحلة الأخيرة من حرب الاستعادة زهاء مائتين وخمسين عاماً صمدت فيها المملكة الإسلامية لهجمات اسبانيا النصرانية المستمرة ، وعملت على استغلال كل فرصة للمطاولة والمقاومة ، وأبدت فى النضال على صغر رقعتها وضآلة مواردها بسالة عجيبة . وكانت كلما شعرت بالخطر الداهم يكاد ينقض عليها ويودى بحياتها استغاثت بجارتها المسلمة من وراء البحر ، أو عصفت باسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتفرق فشغلتها عن إرهاق المملكة الإسلامية حينا ، حتى شاء القدر بعد طول النضال ان تنتهى هذه المعركة القاسية الطويلة إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكة الإسلامية الصغيرة أمام ضغط القوة القاهرة ، وأن تختتم حياتها المجيدة أبية كريمة .

وهنا يجدر بنا أن نحاول أن نلقى شيئا من الضياء على طبيعة هذا النضال الذى استمر قرونا بين الأمة الأندلسية وبين اسبانيا النصرانية وإلى أى حد كانت تحدوه العوامل القومية أو الدينية .

كانت العوامل القومية والدينية تمتزج بأدوار هذا النضال فى معظم أطواره ، وكانت تشتد حينا وتخبو حينا تبعا لتطور الحوادث . ولما افتتح العرب اسبانيا ، وسيطرت الدولة الإسلامية على معظم أنحائها ، قامت المملكة الإسبانية النصرانية الناشئة فى قاصية الشمال ترقب الفرص للتوطد والتوسع . بيد أنها لم تجرأ على تحدى المملكة الإسلامية والنزول إلى ميدان النضال قبل أواخر القرن التاسع ، ففى ذلك الحين اضطرمت الأندلس بالفتن والثورات الداخلية وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثوار والنواحى . وكانت غزوات النصارى للأراضى الإسلامية يومئذ غزوات عنيفة يغلب عليها حب الانتقام والغنم . ولم يكن يطبعها شئ من تلك الروح الدينية

العميقة التى جمعت أوربا النصرانية تحت لواء كارل مارتل لمحاربة العرب على ضفاف اللوار ، والتى حفزت شارلمان فيما بعد إلى عبور جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل . غير أنه لما اشتد ساعد الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر (أوائل القرن العاشر) وظهرت المملكة الإسلامية فى أوج قوتها وظفرها ، ونفذت الجيوش الإسلامية غير مرة إلى أعماق المملكة النصرانية ، وشعر النصارى بالخطر الداهم على كيانهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ، واتحدت المملكتان النصرانيتان ليون وناڤار على مقاومة الخطر الإسلامى . وكانت المعارك التى نشبت فى تلك الفترة فى عهد أردونو الثانى وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحدوها من الجانبين فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ؛ فكانت غزوات المسلمين تحمل طابع الجهاد ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة النصارى ، وكان يرافق الجند النصارى إلى القتال جموع غفيرة من الأحبار ورجال الدين يسقطون إلى جانب الفرسان فى ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية والدينية تبدو كلما اشتد الخطر من الجنوب على اسبانيا النصرانية ، ففى أواخر القرن العاشر فى عهد الحاجب المنصور حينما اشتدت وطأة الأندلس على اسبانيا النصرانية وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتحدت الممالك النصرانية الثلاثة ليون وقشتالة وناڤار ضد المسلمين فى جبهة دفاعية موحدة ؛ وبدت كذلك موحدة الرأى والقوى حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين لتنقذ الأندلس من خطر الفناء الذى كان يهددها من جراء تفرق ملوك الطوائف . وكانت موقعة الزلاقة تحمل فى نظر المسلمين طابع الجهاد فى سبيل الله ، وتطبعها فى نظر النصارى صبغة صليبية واضحة . ولم تكن نصرا للأندلس على خصيمتها اسبانيا فقط ، ولكنها كانت نصر الإسلام على النصرانية أيضا . وكذا كان نصر المسلمين أيام الموحدين فى موقعة الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك فى موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا الطابع الدينى العميق . ويجب أن نذكر أن الحروب الصليبية قد بدأت فى المشرق بعد موقعة الزلاقة بقليل واستمرت تضطرم بين المسلمين والنصارى فى مصر والشام زهاء قرنين ، وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين معاصر السلطان يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك . ولم يك ثمة شك فى أن النزعة الصليبية التى دفعت بجحافل الغرب إلى الشرق الإسلامى كانت

تحدث صداها قويا فى اسبانيا النصرانية وفى الغرب الإسلامى . وفى الوقت الذى كانت جيوش الصليبيين تحاول فيه أن تغزو مصر حصن الإسلام فى الشرق فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط فى أيدى النصارى ، وكانت اسبانيا النصرانية تبدو يومئذ ازاء الأندلس موحدة الرأى والقوى ، كما كانت الجيوش الأوربية الصليبية تسير إلى الشرق متحدة لتحقيق الغرض المشترك .

وقد ظهر صدى النزعة الصليبية فى اسبانيا فى شكل آخر هو قيام الجماعات الدينية المحاربة . ونحن نعرف أن جماعات الفرسان الدينية قامت فى الشرق فى ظل الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداوية » كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الأسبتارية . وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشد أزر الأمراء النصارى وتؤدى للصليبيين أثناء الحرب والسلم خدمات جليلة . وكما أن قيامها فى المشرق كان أثرا من آثار المعارك الصليبية ، فكذلك كان قيامها فى اسبانيا أثرا من آثار النضال بين اسبانيا النصرانية وبين اسبانيا المسلمة . ذلك أن بعض الفرسان والرهبان الورعين المتحمسين ، كان تحزبهم تفرق الملوك النصارى وتخاذلهم أحيانا فى مقاتلة المسلمين ، وكانوا يرون أنه لابد من قيام جماعات غيورة مخلصة من الفرسان تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضى النصرانية . وكانت قدوتهم فى ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التى ترابط عند حدود الأراضى الإسلامية تبدى فى محاربة النصارى بسالة منقطعة النظير ، وتؤدى للجيوش الإسلامية أجل الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد (الداوية) فى بيت المقدس سنة ١١١٩م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم فى اسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل حتى قامت أول جمعية محاربة دينية فى أراجون فى عهد الفونسو المحارب فى صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدى الفونسو فى تأييدها حماسة ، وانتظم فى سلكها الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراض شاسعة على حدود أراجون ، كما احتلت عددا من الحصون فى قشتالة ، ونمت بسرعة وأخذت تضطلع من ذلك الحين بدور هام فى سائر المواقع التى تنشب بين النصارى والمسلمين .

وقامت فى قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ، فى أواخر

عصر القيصر الفونسو ريموندیز (١) ملك قشتالة ، قامت حول سنة ١١٥٠ م جمعية فرسان دينية قوية فى بعض أديار منطقة شلمنقة ، وسميت بجمعية القديس يوليان ، ثم سميت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة. وفى سنة ١١٥٨م قامت جمعية دينية محاربة أخرى ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التى ظهرت فى اسبانيا فى هذا العصر، وهى جمعية فرسان قلعة رباح ، ونشأت لأول أمرها على يد جماعة من الرهبان الذين أبلوا فى الدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين ، واتخذت قلعة رباح مركزا لها . وقامت أيضا فى البرتغال عدة فروع لفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الأسبتارية) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولاسيما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح فى كثير من المعارك التى نشبت فى تلك العصور بين المسلمين والنصارى ، وكان تدخلهم فى كثير من الأحيان من عوامل النصر والإنقاذ للجيوش النصرانية . بيد أنهم بالرغم من صفتهم الدينية والصليبية كانت تحدوهم بواعث وأطماع دنيوية ، وكان ظمأ الكسب واجتناء الغنائم روحهم المسيرة ، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراض واسعة ، ويعيشون فى بذخ وترف بما يحصلون عليه من الإقطاعات والهبات والنذور الوفيرة ، وكان تدخلهم فى شئون السياسة والعرش يشتد أحيانا ويفضى إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت اسبانيا النصرانية حينما بدأت حرب الاستعادة الحقيقية فى أواسط القرن الثالث عشر عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش إلى جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة . على أنه يمكن القول أن ظهور هذه النزعة القومية والدينية العميقة فى حروب اسبانيا النصرانية مع المسلمين لم يكن ملحوظا بصورة واضحة حينما كان التفوق فى القوة لاسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وحينما كان ثمة نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس واسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين . وتدل حوادث التاريخ الأندلسى حتى أواخر القرن الثانى عشر على أن التعصب القومى أو الدينى لم يكن دائما ظاهرة بارزة فى حروب المسلمين والنصارى ، فقد كان الفريقان المتحاربان على وجه العموم يحترم بعضهم بعضا ، وكان التعصب الدينى قاصرا على جماعات الفقهاء من ناحية ، وعلى القساوسة

(١) وتعرفه الرواية الإسلامية باسم ادفنش بن رمند أو السليطين .

والأحبار من جهة أخرى ؛ ويوصف المسلمون فى الأناشيد الإسبانية القديمة بأنهم خصوم شرفاء ، ولا يجيش النصارى نحوهم ببغض أكثر مما كان يجيش به المسلمون أنفسهم ، بعضهم نحو بعض فى الحروب الأهلية التى كانت تنشب فيما بينهم(١). يقول العلامة دوزى : « إن الفارس الإسبانى فى العصور الوسطى لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيد » يحارب لكسب عيشه سواء فى ظل أمير مسلم أو أمير نصرانى . ولقد كان « السيد » نفسه أقرب إلى روح المسلم منه إلى الكاثوليكى »(٢) وفى حياة السيد الكمبيادور (الكنبيطور) نفسه أوضح مثل لاتجاهات الفروسية الاسبانية فى تلك العصور ، فقد نشأ السيد وظهر فى كنف أمير مسلم وتقلب فى خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء . بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو فى خدمة الجانب النصرانى لما حفلت به الأساطير الاسبانية ، ورفعته إلى مرتبة البطل القومى . وفى أحيان كثيرة نرى المرتزقة من الفرسان والجند النصارى يعملون فى الجيوش الإسلامية . وفى مواطن عديدة من تاريخ اسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء النصارى خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين . فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه اردونو بالملك دونه . ولجأ الفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون أمير طليطلة ؛ حينما تغلب عليه أخوه سانشو الثانى وعاش فى بلاطه حتى توفى أخوه ؛ فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفى سنة ٩٩٠م قدم برمود (برمند) الثانى أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم . ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصارى أمرا نادرا . وربما كان تاريخ بلنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقين المتحاربين ، ففيه يكثر التحالف بين المسلمين والنصارى ولاسيما أيام « السيد » وبعدها . وقد كان أمير بلنسية فى أواخر عهد المرابطين محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش(٣) يرجع إلى أصل نصرانى

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. I. p. 51

(٢) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge; V. II. p. 203 & 233.

(٣) ويرى البعض أن هذا الاسم مشتق من اسم «مرتينس» النصرانى .

ويلبس الملابس القشتالية ، ويعتمد فى جيشه على الضباط والجند النصارى ؛ ولم يحجم أمراء المرابطين فى الأندلس حينما انهارت دولتهم فى إفريقية وبدأ الموحدون فى انتزاع الأندلس من أيديهم ، عن الإستعانة بالفونسو ريموندیز ملك قشتالة وحليفه جارسيا ملك ناڤار على محاربة الموحدين . ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى حتى بعد أن بدأت مرحلة الإستعادة الأخيرة ؛ فقد كان مؤسس مملكة غرناطة محمد ابن الأحمر فى بداية أمره ينضوى حسبما رأينا تحت حماية ملك قشتالة ويتعهد بمعاونته فى حروبه ضد خصومه من المسلمين والنصارى . ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين حتى فى ذلك العصر الذى تضاءلت فيه المملكة الإسلامية ؛ فنرى الإنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الملك الفونسو العاشر يلتجئ مع جماعة من النبلاء إلى حماية أبى يوسف المنصور ملك المغرب ويستقرون ضيوفا فى بلاط غرناطة حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم (١٢٧٠م) . وفى سنة ١٢٨٢م اضطر الفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش إلى الاستعانة بالسلطان أبى يوسف وأرسل إليه تاجه مقابل ماينفقه على معاونته ؛ فاستجاب إليه وأمده بالمال والجند . وفى سنة ١٣٣٢م ثار حاكم « الفرنتيره » النصرانى ضد مليكه الفونسو الحادى عشر وتحالف مع غرناطة وعاون بذلك فى رد النصارى عن جبل طارق ، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه . ولما نشبت الثورة ضد ولده بيدرو القاسى (دون بطره) ونزع عن عرشه ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونتيل الفاصلة سنة ١٣٦٧م ، كان إلى جانبه فرقة من الفرسان المسلمين ، أمده بها حليفه الغنى بالله ملك غرناطة(١) . وهكذا كان التعاون السياسى والحربى يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى ، حتى فى تلك العصور التى مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول ، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية أو الدين ؛ وكانت العلائق التجارية أيام السلم تجرى بانتظام ، وتنظم بمعاهدات ودية بين الفريقين ، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التى عقدها محمد بن يوسف ملك غرناطة مع مارتن ملك أراجون لتنظيم العلائق والمبادلات الحرة ، وتنظيم التحالف السياسى بين المملكتين (سنة ١٤٠٥م) (٢) .

---

(١) سوف نعود الى تفصيل هذه الحوادث فى مواضعها بعد .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition; V. I. p. 52-55

هذا ويجب ألا ننسى ما كان هنالك من علائق المودة والتحاب بين جماعات الفرسان من الفريقين ؛ وقد كانت الفروسية الاسبانية فى العصور الوسطى تقتبس كثيرا من تقاليد الفروسية الاسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام. وكانت مباريات الفروسة تجمع بين أنبل الفرسان من الجانبين ، وكثيرا ما كانت تعقد فى العاصمة الإسلامية فى جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف من المسلمين والنصارى ؛ وكانت هذه الاجتماعات المثالية البهجة التى تجمع بين العنصرين الخصيمين ، أبعد ما يكون عن الإعتبارات القومية والدينية ، وقد كانت غرناطة التى اشتهرت بفروستها النبيلة البارعة مسرحا لكثير من هذه المباريات الشهيرة .

تلك هى الصورة المتباينة التى تقدمها إلينا معركة السلطان والقوة ، ومعركة الحياة والموت ، والحرية والاستعباد ، بين الأندلس واسبانيا النصرانية . ذلك أن بواعث الدين والقومية لم تكن دائما كل شىء فى هذا الصراع المضطرم الطويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت النزعة الدينية أو الصليبية تبدو كلما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد الفريقين ، أو كلما اتخذ النضال بين الفريقين صبغة حاسمة . ولما شعرت اسبانيا النصرانية أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد الأندلسية الكبيرة وتضاؤل المملكة الإسلامية فى مركز التفوق والغلبة ، لم يكن ثمة مايدعو لأن تتخذ حرب الاسترداد التى تلت بعد ذلك بين اسبانيا النصرانية وبين مملكة غرناطة ، ألوانا دينية أو قومية عميقة . ذلك أن معركة السلطان قد بت فيها نهائيا بظفر اسبانيا النصرانية ، وأضحى القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكانت اسبانيا النصرانية كلما حاولت أن تتعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقتها المنازعات والثورات الداخلية أو ردها تدخل الدولة الإسلامية القوية فيما وراء البحر . على أنه ما كاد يبدو تفكك المملكة الإسلامية قويا واضحا ، وما كادت حرب الإستعادة تدخل فى طورها الأخير ، حتى بدت النزعة القومية والدينية واضحة قوية فى جهود اسبانيا النصرانية للقضاء على مملكة غرناطة . ولما اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا ، وتم اندماجها فى مملكة موحدة بزواج فرديناند ملك أراجون وإيزابيلا ملكة قشتالة ، اتخذت حروب غرناطة الأخيرة لونا صليبيا عميقا ، يذكيها ويزيد فى ضرامها حماسة هذه الملكة الورعة المتعصبة ، ومن حولها الأحبار المتعصبون ، وأسبغ على فرديناند لقب « الكاثوليكى »

وعلى إيزابيلا لقب « الكاثوليكية » ، وكان أول عمل قام به الجند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، ان رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب ، وأقام الرهبان القداس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة إيزابيلا وزوجها الملك فرديناند فى غرناطة تنويها بظفرهما على الإسلام . وكانت سياسة اسبانيا النصرانية ازاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير فى عصر فرديناند ، حتى مأساة النفى النهائى فى عصر فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصليبية محضة يصوغها ويمليها أحبار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضائه الكنسى المروع ووسائله الدموية ؛ وعلى الجملة فقد كانت جهود اسبانيا النصرانية فى القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسى التعصب الدينى والسياسى التى عرفها التاريخ .

وتلك المأساة التى استطالت منذ قيام مملكة غرناطة زهاء مائتين وخمسين عاما ، هى التى نستعرض حوادثها وظروفها فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة

انقسام أسبانيا النصرانية فى القرن الحادى عشر . تنافس الامارات النصرانية . القضاء على مملكة نافاروعودها . اتحاد قطلونية وأراجون . الممالك النصرانية خلال القرن الثانى عشر . تنافسها وتنابذها . اجتماع كلمتها فى الصراع ضد المسلمين . قشتالة وأراجون. القيصر الفونسو ريموندير. تحالف قشتالة وأراجون ضد نافار . اختفاؤها كمملكة مستقلة . فرديناند الثالث ملك قشتالة . اندماج مملكة ليون فى قشتالة . غزو فرديناند الثالث للأراضى الاسلامية . استيلاؤه على ابدة وقرطبة ومرسية . غزوه لأراضى ابن الأحمر. استيلاؤه على اشبيلية . وفاته وتلقيبه بالمقدس . مملكة أراجون . ملكها جايم. غزوه للجزائر الشرقية . استيلاؤه على ميورقة. حصاره لبلنسية وسقوطها. استيلاؤه على دانية . وفاته وتلقيبه بالفاتح .

لما انهارت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، وانتثرت إلى عدة دول وإمارات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف، كانت اسبانيا النصرانية تجوز حالة مماثلة من تعدد الإمارات والدول، وإن لم تبلغ مابلغته اسبانيا المسلمة من الإنقسام والتفرق . والحقيقة أن اسبانيا النصرانية كانت قد اتحدت فى أوائل القرن الحادى عشر تحت سلطان ملك قوى هو سانشو الثالث الملقب بسانشو الكبير (شانجه) ملك نافار (بلاد البشكنس) ، وكانت المملكة النصرانية تمتد يومئذ من جبال البرنيه شرقاً إلى شانت ياقب غرباً ، ومن خليج بسكونيه شمالا إلى نهر دويرة جنوباً . فلما توفى سانشو فى سنة ١٠٣٥ م قسمت مملكته الكبيرة بين أولاده الأربعة ، فاختص ولده فرديناند بقشتالة وجارسيا بنافار ، وحكم رامير و رقعة ضيقة تمتد جنوباً بشرق باسم مملكة أراجون ، فكان هذا مولد هذه المملكة النصرانية التى نمت بسرعة ولعبت فيما بعد أعظم دور فى تاريخ النضال بين اسبانيا المسلمة

واسبانيا النصرانية . وحكم ولده الرابع كونزالو ولاية سوبراب فى أواسط البرنيه . وأما مملكة ليون وجليقيه فى الغرب فكان يحكمها صهره برمود الثالث . وكانت تقوم ثمة فى الشرق على شاطئ البحر إمارة قطلونية المستقلة ويحكمها آل برنجار . وهكذا انقسمت المملكة النصرانية إلى عدة وحدات متنافسة . وكان من حسن طالع المسلمين أن يقع هذا الانقسام فى الوقت الذى انهارت فيه الدولة الإسلامية الكبرى ، وتقاسمت أشلاءها دول الطوائف الضعيفة ، وبذا قام مدى حين نوع من التوازن بين القوتين المتداعيتين . على أنه بينما استمرت الأندلس فريسة الاضطراب والتفرق ، إذا باسبانيا النصرانية تسير بخطوات متعاقبة فى سبيل الإتحاد والتوطد . ومع أن هذه الخطوات لم تكن دائماً ثابتة الأثر ، فانها كانت تعمل بمضى الزمن على توحيد قوى الممالك النصرانية لمواجهة العدو المشترك أعنى اسبانيا المسلمة . وكانت قشتالة تعمل باستمرار لضم مملكة ليون اليها ، وقد نجحت غير مرة فى تحقيق مشروعها بالعنف لمدى قصير . وكانت أراجون تتوق إلى ضم إمارة قطلونية التى كانت تحجبها عن البحر ، وكانت المملكتان تعملان معاً للقضاء على مملكة ناڤار الصغيرة ، وقد ائتمرتا بالفعل على اقتسامها بالعنف ، فاستولت قشتالة على القسم المحاذى لنهر إيبرو واستولت أراجون على القسم الواقع على جبال البرنيه ، وبذلك اختفت مملكة ناڤار مدى حين (١٠٧٦ م) . ولكن هذه المملكة الصغيرة الأبية عادت فاستردت استقلالها بعد ذلك بنحو ستين عاماً . وذلك أنه حينما توفى الفونسو المحارب ملك أراجون وتولى الملك مكانه أخوه الراهب راميرو سنة ١١٣٤ م ، رفع الناڤاريون على العرش أميراً من سلالة ملوكهم القدماء هو جارسيا راميرز وانفصلت ناڤار بذلك عن أراجون وقشتالة ، واستأنفت حياتها المستقلة حقبة أخرى . ولكن أراجون وقطلونية أتيح لهما أن يتحدا غير بعيد فى مملكة موحدة ، وذلك أن ريمون برنجار أمير قطلونية تزوج بترونلا ابنة راميرو ملك أراجون ، ولما توفى راميرو دون عقب تولى ريمون برنجار ايضاً ملك أراجون ، واتحدت المملكتان تحت تاج واحد ، وقامت مملكة أراجون الكبيرة من ذلك الحين .

كانت الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الثانى عشر خمساً ، هى قشتالة وليون وأراجون وناڤار والبرتغال . وكانت البرتغال قبل ذلك ولاية من ولايات جليقيه

أو إمارة تخضع لها ، ولم تفز باستقلالها إلا فى منتصف القرن الثانى عشر ، فى عهد أول ملوكها المستقلين الفونسو هنريكيز (١) . وكانت هذه الممالك النصرانية الخمس دائمة الخلاف والتنافس ، هذا فضلا عما كان يعانيه كل منها من الثورات والحروب الداخلية حول وراثة العرش . بيد أن هذه الممالك المتنافسة كانت تجتمع دائماً تحت عَلَم واحد هو علم النضال ضد اسبانيا المسلمة ، فنرى جيوشها تجتمع متحدة فى موقعة الزلاقة للقاء الجيوش الإسلامية المتحدة (٤٧٨ هـ — ١٠٨٦ م) ، ونراها تجتمع فى جبهة موحدة للقاء جيوش يعقوب المنصور فى موقعة الأرك (٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م) . وفى هاتين الموقعتين الحاسمتين اللتين انتصر فيهما المسلمون على النصارى ، كانت اسبانيا النصرانية تشعر كلها بشعور واحد ، هو شعور الخطر المشترك ازاء العدو المشترك . ولما نشبت موقعة العقاب وهى ثالثة المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا منذ الزلاقة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م) اجتمع ملوك قشتالة وأراجون وناڤار فى قواتهم ومعهم أمداد كبيرة من ليون ومن البرتغال ، للقاء جيوش الموحدين بقيادة محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وفيها أصيب المسلمون بهزيمة مروعة كانت بدء الانحلال العام فى قوى الموحدين وقوى الأندلس . وهكذا كانت اسبانيا النصرانية تبدو ازاء اسبانيا المسلمة كلما جد الخطر موحدة الرأى والقوى . على أن الممالك النصرانية كانت تشعر فوق ذلك ، أن هذا التقسيم الجغرافى المتعدد يفت فى قواها ولا يلائم مصالحها القومية . وكانت قشتالة وجارتها الشرقية أراجون هما أقوى الممالك النصرانية وأكبرها رقعة ، وكانت كلتاهما تطمح إلى التوسع وضم ما يليها من أراضى الممالك الصغرى ، فكانت أراجون تطمح بعد انضمام قطلونية اليها إلى انتزاع ولايات ناڤار المجاورة لها ، وكانت قشتالة تطمح إلى ضم قرينتها وجارتها القديمة ليون وإلى انتزاع ما بقى من ولايات ناڤار المجاورة لها ، وهى ولايات البشكنس ؛ وكانت إمارة البرتغال الصغيرة الناشئة تدافع عن كيانها واستقلالها بصعوبة خلال هذه الأطماع المضطرمة ، وقد استطاع ملك قشتالة القوى الفونسو ريموندیز (١١١٧ — ١١٥٧م) الذى تلقب بالقيصر ، أن يبسط على اسبانيا النصرانية فى أواخر حكمه حماية عامة ، على أنه لم يحكم بالفعل سوى قشتالة وليون وجليقية .

---

(١) وتسميه الرواية العربية « ابن الريق » تحريفا لهنريكيز أو انريكو الاسبانية .

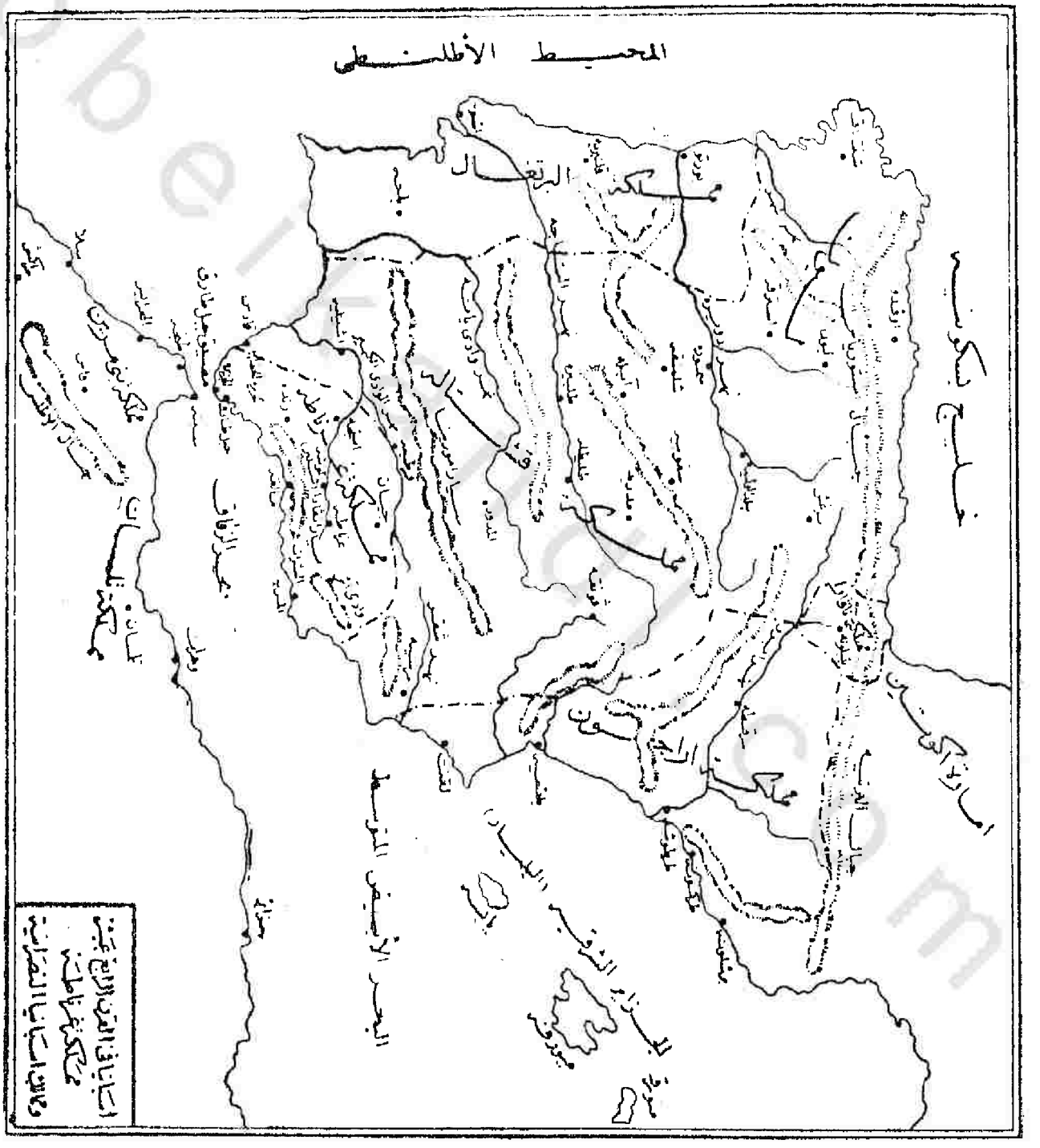

المحيط الأطلنطي

obeikandl.com

وفى أواخر القرن الثانى عشر ، عادت الحرب الأهلية تعصف بالممالك النصرانية ، ولاسيما بين ناڤار وبين قشتالة وأراجون. ونراها تضطرم عقب موقعة الأرك بين قشتالة وبين ناڤار وليون المتحالفتين على قتالها . وكانت ناڤار المملكة الصغيرة الباسلة تدافع عن استقلالها ازاء أطماع جيرانها الأقوياء دفاعاً متواصلا ، ولاسيما فى عهد ملكها سانشو السابع آخر ملوكها الأقوياء ، وكان سانشو ينظر إلى تحالف جارتيه قشتالة وأراجون بعين الجزع ، ويستشعر منه الخطر الداهم على ملكه واستقلال أمته ، ولم يكتف بالتحالف مع ليون وهى المملكة الصغيرة الأخرى التى تخشى على استقلالها من أطماع قشتالة ، بل حاول أن يستمد عون سلطان الموحدين الظافر يعقوب المنصور ، وأن يعقد معه محالفة دفاعية ، وسار فى بطانته إلى إشبيليه يحاول لقاءه ، ولكن الملك المنصور كان قد توفى فى ذلك الحين. ولما عاد سانشو ألفى جاريه القويين بيدور الأول ملك أراجون والفونسو الثامن ملك قشتالة قد انقضا فى غيابه على ناڤار يحاولان اقتسامها ؛ وبالرغم مما أبداه النافاريون من الدفاع الباسل فقد استطاع الفونسو أن ينتزع ولايات البشكنس وأن يضمها إلى مملكته (سنة ١٢٠٠ م) ؛ واستطاع بيدرو أن ينتزع بعض الأراضى المجاورة لأراجون ، ولم يبق من مملكة ناڤار القديمة سوى جزئها الشمالى . ولم تمض فترة قصيرة أخرى حتى ذهب هذا الجزء إلى حوزة حكام فرنسا الحنوبيين بطريق المصاهرة والوراثة (١٢٣٤م). وبذلك اختفت هذه المملكة الصغيرة الباسلة من بين ممالك اسبانيا النصرانية .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اختفت مملكة ليون القديمة جارة قشتالة من الغرب . وذلك أنه لما توفى الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة فى سنة ١٢١٤ م ، خلفه ولده الطفل هنرى ، وكانت كبرى بناته الأميرة برنجاريا قد تزوجت بالفونسو التاسع ملك ليون ثم طلقت منه بعد أن رزقت بعدة أولاد أكبرهم فرديناند. وثار فى قشتالة مدى حين نزاع على وصاية الملك الطفل هنرى ، ثم توفى قبل أن يبلغ رشده قتيلا فى حادث . وكان الفونسو النبيل قد قرر فى وصيته أنه اذا انقرض عقبه من الذكور ، فان العرش يؤول عندئذ إلى ابنته الكبرى برنجاريا ثم إلى أعقابها الشرعيين ؛ وهكذا قدر لفرديناند ولد برنجاريا من الفونسو التاسع ملك ليون ، أن يرقى عرش قشتالة باسم فرديناند الثالث ، وهو الذى عرف فيما بعد بفرديناند المقدس ، وكان من

أعظم ملوك قشتالة . ولما توفى أبوه الفونسو التاسع ملك ليون وجليقيه فى سنة ١٢٣٠م خلفه أيضاً فى مُلك ليون باعتباره وارث العرش الشرعى ، وبذلك اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد، واختفت مملكة ليون وجليقيه القديمة من عداد الممالك الإسبانية النصرانية ، وأضحت قشتالة بهذا الاتحاد أقوى الممالك الإسبانية وأوسعها رقعة وأغناها موارد ، واستطاع فرديناند الثالث بفضله أن يحرز التفوق على المسلمين ، وأن يفتتح قواعد الأندلس العظيمة التى عجز عن افتتاحها جميع أسلافه من الملوك النصارى .

وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية منذ أوائل القرن الثالث عشر ثلاثا فقط هى قشتالة وأراجون والبرتغال ؛ وبينما قنعت البرتغال بالعمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضى الإسلامية الواقعة فى جنوبها وهى التى تعرف بولاية الغرب ، إذا بقشتالة وأراجون تعملان معا للمضى فى تحقيق الغاية القومية والدينية الكبرى ، التى تعمل لها اسبانيا النصرانية منذ قرون ، وهى القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس واستخلاص تراث الوطن القديم .

— ٢ —

فى الوقت الذى انهارت فيه دولة الموحدين بالأندلس على أثر انهيارها فى إفريقية ، وملك ابن هود مرسية وشرقى الأندلس ، وغلب ابن الأحمر على بعض القواعد الجنوبية ، مثل وادى آش وبياسة وجيان ، وغلب بعض الأمراء الموحدين على إشبيلية وما جاورها ، وأخذ هؤلاء الأمراء المسلمون يتربص بعضهم ببعض ، ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد الآخر من القواعد والحصون ، شعرت مملكة قشتالة المتحدة القوية بأن الفرصة قد سنحت لتسديد ضربتها المميتة إلى الأندلس ، وبادر ملكها فرديناند الثالث بغزو الأراضى الإسلامية . وكانت معظم القواعد والحصون المتاخمة لقشتالة دون دفاع يذكر ، فافتتح عددا من الحصون واستولى على مدينة أبده فى سنة ١٢٣٢م (٦٣١ هـ) . وفى أوائل سنة ١٢٣٦م سار فرديناند لغزو قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وكانت أثناء الحرب الأهلية قد انضوت تحت لواء ابن هود ونادت بطاعته ، وهاجم النصارى قصبتها الشرقية بشدة وضربوا حولها الحصار ، وكان ابن هود يضع خططه يومئذ لغزو بلنسية فلم يستطع إنجاد المدينة

المحصورة ، خصوصا وقد علم أن النصارى هاجموها بقوات كبيرة ، فترك قرطبة لمصيرها ؛ ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم أعظم دفاع ، واشتبكوا مع النصارى خارج المدينة وفى داخلها فى عدة معارك دموية شديدة ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئا ، وسقطت عاصمة الأندلس القديمة ، ودخلها النصارى فى ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ (٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ) ورفعوا الصليب فى الحال فوق مسجدها الجامع تنويها بظفر النصرانية ، وكان سقوط قرطبة نذيرا بما انتهت إليه الأندلس من بالغ الضعف والفوضى .

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين فى شرقى الأندلس ، بعث فرديناند الثالث ولده الفونسو إلى مرسية واستولى عليها صلحا فى سنة ١٢٤٣م (٦٤١هـ). ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التى أخذت تنمو ويشتد ساعدها فى ظل ابن الأحمر، فانتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى ، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة ، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيان فى العام التالى (سنة ١٢٤٥م) ، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف ، فاضطر إلى عقد الصلح والانضواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل ؛ وبلغ فرديناند الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان ، وأضحت الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته .

وأخذ فرديناند فى الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس. وفى سنة ١٢٤٧ م (٦٤٤هـ) بث قواته فى أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها ، وسير فرديناند فى الوقت نفسه أسطولا فى مياه الوادى الكبير لكى يحول دون وصول الأمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر ؛ وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية أمير من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وأبدى المسلمون إصرارا وجلدا فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن النصارى أحكموا حصارها ، واستمر الحصار طول الشتاء ، ثم حشد فرديناند فى العام التالى حولها قوات جديدة ، وسارع إلى نجدته كثير من المتطوعة النصارى من أراجون والبرتغال ومنهم كثير من الأحبار والرهبان ، واضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرديناند ببعض قواته ، وفى النهاية اضطرت الحاضرة الاسلامية الكبيرة إلى التسليم ، ودخلها النصارى فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة جريا

على عادتهم ، وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى فى يد النصارى ، ولاح شبح الفناء للأندلس واضحا منذرا .

وتوفى فرديناند الثالث فى مايو سنة ١٢٥٢م بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وقد غدت منذ افتتاحها عاصمة لقشتالة مكان طليطلة ، وأسبغ عليه أثناء حياته لقب « المقدس » تنويها بما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية .

وأما مملكة أراجون فقد تخلفت حينا عن قرينتها قشتالة فى مناهضة المسلمين ، وكان ملكها بيدرو الثانى الذى خلف أباه الفونسو على العرش فى سنة ١١٩٦ م أميراً وافر الشجاعة والفروسة ، ولكنه شغل بتنظيم شئون مملكته الداخلية ومقاومة سلطان الأشراف ، ثم حج إلى رومة ليتلقى تاجه من يد البابا . ولما عاد إلى أراجون شغل حينا بمحاربة الألبيين وغيرهم من الملاحدة فى جنوب فرنسا ، وتوفى قتيلا فى احدى المعارك (سنة ١٢٢٤م) . فخلفه ولده جايم (يعقوب) طفلا بالرغم من معارضة عميه سانشو وفرناندو ، وثارت من جراء ذلك فى أراجون حرب أهليـة استمرت عدة أعوام ، ولكنها انتهت بفوز جايم وحزبه على الثوار ، فعاد إلى الجلوس على العرش دون منازع وذلك فى سنة ١٢٢٧ م .

وما كاد جايم يستقر فى عرشه ، حتى اعتزم أن ينزل ميدان الحرب ضد المسلمين ، وأن يحاول الفوز بنصيبه من الأراضى الأندلسية ، فبدأ يغزو الجزائر الشرقية (جزائر البليار) القريبة من شواطئ أراجون ، وسير إليها فى سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧هـ) حملة بحرية قوية . وكانت ميورقة وباقى الجزائر الشرقية يومئذ تابعة لإمارة بلنسية التى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع ، ويحكمها من قبله الأمير محمد بن على بن موسى ، فنزل النصارى إلى الجزيرة ولكنهم لقوا داخلها مقاومة عنيفة ، ودافع المسلمون عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى التسليم (صفر سنة ٦٢٧هـ) . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة فى شعب الجزيرة بعد ذلك حينا ، واضطر جايم أن يعود إليها مرتين حتى أتم اخضاعها فى سنة ١٢٣٣م ؛ وسلمت منرقة وهى ثانية الجزائر للنصارى بعد ذلك ببضع سنين .

وما كاد ملك أراجون يستولى على جزيرة ميورقة حتى وجه عنايته إلى فتح بلنسية ، وسار إلى غزوها فى جيش ضخم فى سنة ١٢٣٧م ، واستطاع أن ينتزع الحصون الواقعة حولها تباعا. وكانت بلنسية قد سادها الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد تأهبت بقيادة أميرها أبى جميل زيان لمقاومة النصارى ، وطوق النصارى المدينة من البر والبحر ، وبعث الأمير أبو جميل وزيره وكاتبه ابن الأبار القضاعى إلى أمير إفريقية (تونس) أبى زكريا الحفصى يستغيث به ، والقى ابن الأبار بين يديه قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وبادر الأمير أبو زكريا باغاثة بلنسية وبعث إليهم بعض الامداد والمؤن فى عدة سفن ، ولكنها لم تصل إلى المدينة المحصورة ؛ واستمر الحصار أشهرا واشتد الكرب بالمسلمين ، وضاعف النصارى هجماتهم حتى اضطرت المدينة المحصورة فى النهاية إلى التسليم بشرط أن يؤمن أهلها فى النفس والمال وأن يغادرها من شاء منهم ، وكان سقوط بلنسيه فى يد النصارى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨م (١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ) .

وعلى أثر سقوط بلنسية تابع چايم غزواته لباقى الأراضى الإسلامية المجاورة لها ، واستولى على شاطبة فى سنة ١٢٤٤م (٦٤١هـ) . ولم تمض أشهر قلائل حتى استولى على ثغر دانية فى مايو سنة ١٢٤٤م (آخر سنة ٦٤١هـ) . وقرر چايم أن يجلى جميع السكان المسلمين عن الأراضى التى تم افتتاحها ، فهرعت منهم جموع غفيرة إلى مملكة غرناطة حتى ضاقت بسكانها ، وهاجر منهم كثيرون إلى إفريقية ، وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة تتحول تباعا إلى مدن نصرانية ، وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية من المدجنين ؛ تعيش فى ظل الحكم الإسبانى فى ذلة وخضوع .

وعنى چايم بعد ذلك باصلاح الشئون الداخلية ، وتمت فى عهده عدة اصلاحات تشريعية خطيرة . ووضع مشروعا لتقسيم المملكة بعد وفاته بين أولاده الأربعة ، ولكنه لم يتحقق لوفاة أكبر أولاده الفونسو ، ولما أثاره من اضطراب فى أنحاء المملكة. وتوفى چايم بعد حكم طويل حافل فى سنة ١٢٧٤م ، وقد أسبغت عليه فتوحاته فى الأراضى الإسلامية لقب « الفاتح »

الفصل السادس

مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر

وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر و بنى مرين

ولاية محمد الفقيه . تربص النصارى بالاندلس . بنو مرين ومبدأ امرهم . القتال بينهم وبين الموحدين . ولاية ابى يحيى المرينى . ولاية أبى يوسف يعقوب . انهيار دولة الموحدين . استغاثة الأندلس ببنى مرين . استجابة السلطان أبى يوسف لصريخ الأندلس . ارساله حملة الى الأندلس ثم عبوره اليها . موقف بنى اشقيلولة . غزو أبى يوسف لبسائط الفرنتيره . موقعة استجة وغزوات أبى يوسف . عوده الى المغرب . توجس ابن الأحمر وعتابه لأبى يوسف . عبور أبى يوسف الى الأندلس للمرة الثانية . توغله فى أراضى النصارى . اللقاء بينه وبين ابن الأحمر . استيلاء ابن الأحمر على مالقة . تفاهمه مع ملك قشتالة . انتصار المغاربة فى البحر . زحفهم على ماربلة . القتال بينهم وبين ابن الأحمر . توجس أبى يوسف من العواقب . عودة التفاهم بينه وبين ابن الأحمر . أثر غرناطة وبنى مرين فى شئون قشتالة . الفونسو العالم ملك قشتالة . ثورة ولده سانشو عليه . التجاؤه الى السلطان أبى يوسف المنصور . عبور المنصور لنصرته وغزوه لأراضى قشتالة . تفاهم ابن الأحمر مع سانشو . عود التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور . توجس ابن الأحمر من المغاربة . عبور المنصور الى الأندلس للمرة الرابعة . غزواته فى أرض النصارى . سانشو ملك قشتالة يذعن للصلح . وفاة المنصور وولاية ولده أبى يعقوب . خروج أبو الحسن بن أشقيلولة فى وادى آش . استرداد ابن الأحمر لوادى آش . اغارة ملك قشتالة على أراضى الأندلس . سير الجيوش المغربية الى الأندلس . هزيمة المغاربة فى البحر . عبور السلطان أبى يعقوب الى الأندلس . غزوه لأراضى النصارى . توجس ابن الأحمر من نيات أبى يعقوب وتفاهمه مع ملك قشتالة . انتزاع سانشو لطريف من المغاربة . نكثه لعهوده لابن الأحمر . سعيه للتفاهم مع أبى يعقوب وعبوره الى المغرب . وفاة ابن الأحمر وخلاله . ولاية محمد الملقب بالمخلوع . غلبة وزيره ابن الحكيم عليه . اضطراب العلائق بين محمد والسلطان أبى يعقوب . استيلاء محمد على سبتة . مصرع أبى يعقوب . زحف عثمان بن أبى العلاء على المغرب . ولاية السلطان أبى ثابت لعرش المغرب . مسيره الى الشمال ووفاته . ولاية السلطان أبى الربيع . هزيمة الأندلسيين ومقتل عثمان . الثورة فى غرناطة . مقتل ابن الحكيم وعزل محمد المخلوع . ولاية السلطان أبى الجيوش نصر . استرداد المغاربة لسبتة . اضطراب الأحوال فى عهد نصر . غزو القشتاليين لأرض الأندلس . مشروع فرديناند لغزو جبل طارق . حصار المرية وهزيمة النصارى . سقوط جبل طارق . الصلح بين ملك غرناطة وبنى مرين . امصانعة نصر لملك قشتالة . تعهده بأداء الجزية . الثورة فى غرناطة . هزيمة نصر وعزله .

لما توفى محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة، خلفه فى الملك ولده وولى عهده أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه. وكان مولده بغرناطة سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م). وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة النصرية، ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكية الزاهية. وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة من قوة العزم، وبعد الهمة وسعة الأفق، والبراعة السياسية. وكان عالما أديباً يقرض الشعر، ويؤثر مجالس العلماء والأدباء. ولأول عهده نشط ملك قشتالة الفونسو العاشر إلى محاربة المسلمين، وكان مثل أبيه فرديناند الثالث يرى أن دولة الإسلام بالأندلس قد دنت نهايتها، ويتربص الفرصة بالمملكة الإسلامية الفتية، ويحاول أن يعمل كأبيه للقضاء عليها قبل استفحال أمرها. ولم يكن ملك غرناطة بغافل عن الخطر الذى يتهدده من مشاريع قشتالة. وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على محالفة بنى مرين، ملوك العدوة والاستنجاد بهم كلما لاح شبح الخطر الداهم(١). وكان بنو مرين وهم الذين استولوا على ملك الموحدين بعد ذهاب دولتهم، يومئذ فى عنفوان قوتهم، وكانت مملكتهم الفتية، تشغل فى نظر الأندلس ونظر اسبانيا النصرانية نفس الفراغ الذى تركه ذهاب دولة المرابطين ثم دولة الموحدين، وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الدولة الجديدة فى ميدان السياسة والحرب نحو الجزيرة الإسبانية، نفس الدور الذى أدته المملكتان المغربيتان الذاهبتان.

وبنو مرين بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة، التى ينتمى إليها عدة من القبائل التى لعبت أدوارا بارزة فى تاريخ المغرب، مثل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وعبد الواد وغيرهم. ومع ذلك فان بنى مرين يرجعون نسبتهم إلى العرب المضرية، وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ(٢). وكانت القبائل المرينية فى بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة، تجول فى صحارى المغرب وهضابه جنوبى تونس، وتسير نحو المغرب أيام الصيف. وفى فاتحة القرن السابع الهجرى، نشبت الحرب

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٣؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٩١.

(٢) الذخيرة السنية ص ١٠ و ١١ و ١٦.

بينهم وبين بني عبد الواد ؛ فتوغلوا في هضاب المغرب . ونزلوا بوادي ملويةالواقع بين المغرب والصحراء وأقاموا هنالك حينا . وكانت قوى الموحدين قد تضعضعت منذ موقعة العقاب (٦٠٩هـ) (١) وسرت إلى دولتهم عوامل التفكك والاضمحلال . ولما توفي ملكهم الناصر ، وهو المهزوم في موقعة العقاب سنة ٦١٠هـ ، ولي بعده ولده يوسف المستنصر . وكان فتى حدثا ضعيف الهمة والخلال . فانكب على لهوه وساءت أمور المملكة وسرت إليها الفوضى . ففي تلك الآونة التي بدأ فيها ملك الموحدين يهتز في يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا في جنباته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة في سنة ٦١٣هـ ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضي عليهم ، فارسل جيوشه لقتالهم ولكنها هزمت . ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس ؛ وكان أمير بني مرين يومئذ أبو محمد عبد الحق بن خالد بن محيو ، ولكنه قتل في بعض المواقع في سنة ٦١٤هـ ، فخلفه في الإمارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يقود قومه في ميدان النضال ضد الموحدين (٢) .

وفي سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) سير الرشيد ملك الموحدين جيشا لقتال بني مرين. فهزم الموحدون هزيمة شديدة ؛ واستولى المرينيون على معسكرهم . وتوفي الرشيد في العام التالي . فخلفه في الملك أخوه أبو الحسن السعيد ، واعتزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بني مرين ، فسير لقتالهم في سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) جيشا ضخما ونشبت بين الموحدين وبين بني مرين موقعة هائلة هزم فيها بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف محمد بن عبد الحق ، وكانت ضربة شديدة هدت من عزائمهم مدى حين.

وتولى إمارة بني مرين بعد مقتل أبي معرف ، أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبي يحيى . وفي عهده اشتد ساعد بني مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣هـ) ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد (٦٤٨هـ — ١٢٥٠م) . وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة أعظم ضربة أصابت مملكة الموحدين ، وكان نذير الإنهيار النهائي . ثم استولوا على سجلماسة وذرعة (٦٥٥هـ) . ولما توفي أبو يحيى سنة ٦٥٦هـ، تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من بعده رياسة بني مرين

---

(١) الذخيرة السنية ص٥٢و٥٣ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٣و٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٩٣و٩٤ .

وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفى سنة ٦٥٧هـ نشبت الحرب بين بنى مرين وبين الأمير يغمراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط ، فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفى العام التالى (٦٥٨هـ) هاجم النصارى (الاسبان) فى سفنهم ثغر سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيرا من أهله ، فبادر أبو يوسف بانجاده ، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه .

ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحدين وبنى مرين ، ففى أواخر سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٩م) سار الواثق بالله المعروف بأبى دبوس ملك الموحدين من مراكش لقتال بنى مرين ، والتقى الجمعان فى وادى غفو بين فاس ومراكش ، فهزم الموحدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومؤنهم وخزائنهم ، ثم سار إلى مراكش فدخلها فى المحرم سنة ٦٦٨هـ ، وتسمى بأمير المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحدين فى المغرب ، كما انتهت فى الأندلس ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلث قرن ، وقامت مكانها دولة بنى مرين تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كله ، وتستقبل عهدا جديدا من القوة والسلطان(١).

إلى تلك الدولة الجديدة الفتية ، كانت تتجه أنظار الأندلس كلما لاح لها شبح الخطر الداهم . وقد شاء القدر أن تلعب دولة بنى مرين وريثة المرابطين والموحدين ، فى حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسس مملكة غرناطة أهمية التحالف مع بنى مرين والاستنصار بهم ؛ فبعث قبيل وفاته بقايل حسبما رأينا إلى السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجادها . وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريخ ابن الأحمر (٦٧٠هـ) يسير إلى غزو تلمسان ؛ فلما وقف من الرسل على حال الأندلس وما يهددها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل واتفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد فى سبيل الله ، وأرسل السلطان إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح ، لكى يتمكن من العبور إلى الأندلس ، فأبى واقتتل الفريقان على مقربة من وجده ، فى شهر رجب سنة ٦٧٠هـ (١٢٧٢م) فهزم

---

(١) راجع فى أصل بنى مرين ونشأتهم ، الذخيرة السنية ص١٠و١٦و٩٤و٩٩و١٢٣و١٢٤ ؛ والاستقصاء ج٢ص١٣و١٤ ؛ وابن خلدون ج ٧ص١٦٦ — ١٨٠

يغمراسن وفرجيجا(١)، وعاد أبو يوسف مظفرا إلى المغرب . وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وإنجادها .

على أنه مضى أكثر من عامين قبل أن تسنح له الفرصة المرجوة . فلما تولى محمد الفقيه الملك ، أرسل عقب ولايته بقليل وفدا من أكابر الأندلس إلى ملك المغرب ورسالة استغاثة مؤثرة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة ، وتكالب العدو القوى عليها ، واستصرخوه للغوث والجهاد . ومما جاء فى رسالة ابن الأحمر إلى أبى يوسف بعد الديباجة :

مرين جنود الله أكبر عصبة ... فهم فى بنى أعصارهم كالمواسم
مشنفة أسماعهم لمدائح ... مسورة إيمانهم بالصوارم

« تطول علينا بمعلوم جدك ومشهود جدك ، قد جعلك الله رحمة تحيى عيشها بجيوشك السريعة ، وخلفك سلما إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصرانى على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الإهتضام ، وقد استخلص قواعدها ومزق بلدانها ، وقتل رجالها وسبى ذراريها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بابراقة وإرعاده ، وعدده وايعاده ، وطلب منا أن نسلم له مابقى بأيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسة والرهبان. وقد وطأ الله لك ملكا عظيما شكرك الله على جهادك فى سبيله ، وقيامك بحقه وإجهادك فى نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنات بنفسه . فان شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لايفتر ، وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين » (٢) .

ثم تتابعت رسل ابن الأحمر وبنى أشقيلولة إلى السلطان أبى يوسف ، ينوهون بالخطر الداهم الذى يهدد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد ، فاستجاب السلطان أخيرا لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب عن

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٤٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٦ .
(٢) راجع هذه الرسالة بأكملها فى الذخيرة السنية ص ١٥٩ — ١٦١ .

عزمه على الجواز إلى الأندلس فى فاتحة سنة أربع وسبعين ، ومما جاء فى رسالته :

« وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، ونسقى بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من المكاره ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم فى إثر هذا إنشاء الله ، ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه » (١) .

وهكذا اعتزم السلطان أبو يوسف أن يؤدى رسالة المغرب التاريخية فى حوادث الأندلس ، وكان بنو مرين فى عنفوان دولتهم يجيشون بنزعة الجهاد الفتية . وخرج السلطان من فاس فى رمضان سنة ٦٧٣هـ برسم الجهاد فى الأندلس ، وأرسل للمرة الثانية إلى الأمير يغمراسن صاحب تلمسان يعرض الصلح توحيدا للكلمة وتعضيدا للجهاد . فقبل يغمراسن وتم الصلح . وبادر السلطان فجهز ولده أبا زيان(٢) فى خمسة آلاف مقاتل فعبر البحر من قصر المجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ونزل بثغر طريف فى شهر ذى الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م) ونفذ إلى أرض النصارى حتى شريش ، وعاث فيها وعاد مثقلا بالسبى والغنائم ، وقدّم إليه ابن هشام وزير ابن الأحمر ثغر الجزيرة فنزل فيه ، وجاز ابن هشام إلى العدوة فلقى السلطان أبا يوسف فى معسكره على مقربة من طنجة . وكان السلطان قد استكمل أهبته ، فعبر من قصر المجاز إلى الأندلس فى صفر سنة ٦٧٤هـ (يوليه ١٢٧٥م) ، فى جيش كثيف من البربر داعيا إلى الجهاد على سنة أسلافه المرابطين والموحدين . وكان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية ، لتنزل بها جنوده فى الذهاب والإياب فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ؛ ونزل أبو يوسف بجيشه فى طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة إلى لقائه ، واهتزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الاحمر مالبث أن غادره مغضبا لما رآه من تدخله فى شئون الأندلس بصورة مريبة . ذلك أن بنى أشقيلولة

---

(١) راجع نص رسالة السلطان أبى يوسف بأكمله فى الذخيرة السنية ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) الذخيرة السنية ص١٦٤ ، ولكن ابن خلدون يقول إن السلطان بعث الجند مع ولده منديل (ج ٧ ص ١١٩) ومنديل حفيد السلطان أبى يوسف .

أصهار بنى الأحمر ، وفى مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد ابن الأحمر وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا يجيشون نحو عرش غرناطة بأطماع خفية . وكان أبو محمد ممتنعا بمالقة مغاضبا لملك غرناطة حسبما قدمنا . فلما عبر أبو يوسف إلى الأندلس سار إليه وانضوى تحت لوائه ، ولم يفلح أبو يوسف فى التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، وخشى ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبى يوسف ، فارتد إلى غرناطة حذرا متوجسا .

ونفذ السلطان أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيره(١) وكانت فى يد النصارى وعاث فيها . ثم توغل غازيا ينتسف الضياع والمروج ويسبى السكان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبده على مقربة من قرطبة . وعندئذ عول القشتاليون على لقائه دفاعا عن أراضيهم . وخرج القشتاليون فى جيش ضخم تقدره الرواية الاسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل(٢) ، وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى لارا الذى تسميه الرواية الاسلامية « دونونة أو دننه أو ذنونة » . وكان أبو يوسف قد وصل عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها ، واستعدت للقتال ، ووضع أبو سيف الغنائم فى ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أبى يعقوب على مقدمته وخطب جنده وحثهم على الجهاد والموت فى سبيل الله . ثم تقدم لملاقاة النصارى ومعه بعض قوات الأندلس برياسة بنى أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى على مقربة من إستجة فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ (٩ سبتمبر ١٢٧٥م) ، فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة هزم النصارى على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدة كبيرة منهم (٣). وكان نصرا عظيما أعاد إلى الأذهان ذكريات موقعة الزلاقة وموقعة الأرك ، وكان أول نصر باهر يحرزه المسلمون على النصارى منذ موقعة

---

(١) الفرنتيره هى السهل الواقع فى غربى مثلث إسبانيا الجنوبى (الجزيرة) ويمتد من قادس جنوبا حتى طرف الغار .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ ؛ واللمحة البدرية ص ٤٤ ؛ والاحاطة ج ١ ص ٣٧٢ ؛ والذخيرة السنية ص ١٧٠ — ١٧٢ .

العُقاب ومنذ انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعدها العظيمة . وتبالغ الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى فتقول إنه قتل منهم فى الموقعة ثمانية عشر ألفا جمعت رؤوسهم وأذن عليها المؤذن لصلاة العصر ، فى حين أنه لم يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرون رجلا(١) .

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقيل إنه بعثها بدوره إلى ملك قشتالة مضمخة بالطيب مصانعة له وتوددا إليه . وكتب أبو يوسف إلى العدوة رسالة يشرح فيها حوادث الموقعة ، وما انتهت إليه من نصر باهر ، فقرئت على المنابر ، وكتب رسالة مماثلة إلى ابن الأحمر فرد عليه بالشكر والدعاء . ورفع ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين (أبى يوسف) قصيدة يهنئه فيها بالنصر جاء فيها :

هبت بنصركم الرياح الأربع ... وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائك سيفا ... حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا ... أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذى ... ملأ البسيطة نوره المتشعشع

ولبث أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسابيع قسمت فيها الغنائم واستراحت الجند . ثم خرج للمرة الثانية فى جمادى الأولى سنة ٦٧٤هـ ، وتوغل غازيا فى أراضى قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ؛ فأغلقت المدينة أبوابها ، وعاث أبو يوسف فى تلك الأنحاء ، ثم سار إلى شريش فضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة ورهبانها وطلبوا إليه الأمان والصلح ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى قواعده مثقلا بالغنائم والسبى . وقضى بضعة أسابيع أخرى بالجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب فى أواخر شهر رجب ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر .

بلى أن هـذا النصر الباهر ، الذى أحرزه السلطان أبو يوسف المرينى على النصارى ، لم يحدث أثره المنشود فى بلاط الأندلس . ذلك أن محمد بن الأحمر ، جنح إلى الارتياب فى نيات ملك المغرب ، وخصوصا مذ أسبغ السلطان حمايته على بنى أشقيلولة ، وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٧٣ .

وغدر المرابطين بهم(١) . وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة ، يعاتبه لتصرفه فى حقه بقصائد مؤثرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها . ومن ذلك قصيدة من نظم أبى عمر بن المرابط كاتب ابن الأحمر هذا مطلعها :

هل من معينى فى الهوى أو منجدى ... من منهم فى الأرض أو من منجد
هذا الهوى داعٍ فهل من مسعف ... باجابة وإنابة أو مسعد

ومنها فى الاستغاثة :

أفلا تذوب قلوبكم إخواننـــا ... مما دهانا من ردى أو من ردى
أفلا تراعون الأذمـــة بيننـا ... من حرمـة ومحبـة وتودد
أكذا يعيث الروم فى إخوانكم ... وسيوفكم للثـار لم تتقلـد
ياحسرتى لحمية الإسـلام قـد ... خمدت وكانت من قبل ذا تتوقد
أبنى مرين أنتم جيرانـنـا ... وأحق من فى صرخة بهم ابتدى
أبنى مرين والقبائل كلهـــا ... فى المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا ... منه إلى القرض الأحق الأوكد
أنتم جيوش الله ملء فضـائه ... تأسون للدين الغريب المفرد(٢)

وفى أوائل سنة ٦٧٦هـ توفى أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكما من قبله ، فزاد ذلك فى توجس ابن الأحمر وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الدانى فى بعض قواته إلى مالقة ، ليحاول الاستيلاء عليها فلم يوفق . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) ، ونزل بمالقة فاحتفل به أهلها ، ثم توغل بجيشه فى أرض النصارى يعيث فيها ومعه بنو أشقيلولة فى جندهم حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه . ثم دعا ابن الأحمر إلى لقائه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملأ نفسه ، وتبادل

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٨ .

(٢) نقل إلينا ابن خلدون هذه القصيدة بأكملها (ج٧ص١٩٨ — ٢٠٠) وفيها كثير من المعانى التى وردت فى مرثيه أبى البقاء الرندى، كما أشار إلى ردود السلطان أبى يوسف إشارة عابرة (ص٢٠٠).

الملكان عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجال بخاطره أن التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفى أواخر سنة ٦٧٧هـ استطاع ابن الأحمر أن يستولى أخيرا على مالقة ، وذلك باغراء صاحبها بالنزول عنها والاستعاضة بالمنكب وشلوبانية . ثم سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه ، على منع السلطان المنصور من العبور إلى الأندلس . ونزلت القوات القشتالية بالفعل فى الجزيرة . وكاتب ابن الأحمر أيضا الأمير يغمراسن ملك المغرب الأوسط ، وخصم السلطان المنصور يسأله العون والتحالف . وعلم المنصور بذلك فأراد العبور توا إلى الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حينا . وفى أوائل سنة ٦٧٨هـ بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى الأندلس فى أسطول ضخم ، ونشبت بينه وبين أسطول النصارى المرابط فى بحر الزقاق معركة هائلة ، هزم النصارى على أثرها واستولى المسلمون على سفنهم ، ونزلوا بالجزيرة ، فغادرها النصارى فى الحال .

وأراد الأمير أبو يعقوب أن يتبع نصره بعقد الصلح مع ملك قشتالة والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة ، فأنكر عليه أبوه السلطان ذلك ، ثم زحف جند المغرب على ثغر ماربلة ، وهى من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليها ، فامتنعت عليهم . وانتهز القشتاليون تلك الفرصة ، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشقيلولة ، فلقيهم ابن الأحمر وردهم على أعقابهم (٦٧٩هـ) . بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقت أخذ يشعر بدقة موقفه ، وخطورة القوى التى يواجهها سواء من جانب القشتاليين أو من جانب الجيوش المغربية ، التى استدعيت فى الأصل لتكون له سندا وغوثا ، فانقلبت إلى مناوأته وقتاله . ومن جهة أخرى فقد كان السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرف على مصير المسلمين ، وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر فى وجوب عقد المودة والتفاهم ، فلقى لديه مثل رغبته ، وبادر السلطان إلى عقد أواصر الصلح والتحالف بين المسلمين ، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور لتكون له قاعدة للعبور والغزو . وصفا الجو

على أثر ذلك بين ابن الأحمر والمغاربة ، وشغل السلطان المنصور حينا بمحاربة الخوارج عليه .

* * *

ولم يمض قليل على ذلك حتى عادت شئون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور ، وكانت شئون الأندلس قد غدت فى الواقع عنصرا بارزا فى سياسة بنى مرين ، وكانت مملكة غرناطة حتى فى ذلك الوقت الذى انكمشت فيه الدولة الإسلامية فى الأندلس ، تلعب دورها فى شئون اسبانيا النصرانية كلما اضطربت فيها الحوادث . ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر ، اتجه إليها اهتمام النصارى ، وكانت كلما وقعت فى قشتالة حرب أهلية لجأ هذا الفريق أو ذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بنى مرين ، على غرار ما كان يحدث فى الماضى . ومن ذلك ماحدث فى سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) من خروج الإنفانت فيليب على أخيه الفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء والتجائهم إلى السلطان المنصور فى طلب العون واستجابته لدعوتهم ، واتخاذهم غرناطة قاعدة لجهودهم . وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والنصارى ، لولا تدخل فيولا ملكة قشتالة ، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح . ولا بد لنا أن نذكر هنا أن الفونسو العاشر ملك قشتالة هذا هو الفونسو العالم أو الحكيم El Sabio وكانت له صلات وثيقة بعلماء الأندلس ، ومنهم تلقى الكثير وتأثر بمناهجهم فى التفكير والدرس . وقد وضع الفونسو جداوله الفلكية الشهيرة المسماة بالجداول « الألفونسية » على يد جماعة من العلماء المسلمين واليهود والنصارى ، كما وضع تاريخا لاسبانيا عنوانه Cronica general de Espagna «تاريخ اسبانيا العام» وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . ومع أنه لايخلو من كثير من الأساطير والروايات المغرقة ، فانه يعتبر من أهم مصادر التاريخ الإسبانى فى العصور الوسطى . وكان الفونسو العاشر يحب جيرانه المسلمين ، ويقدر علمهم ورفيع ثقافتهم ، وكان هذا من أسباب السخط عليه فى مملكته . وكان من جراء اشتغاله بالعلوم والآداب فى عصر لاتنهض الممالك فيه إلا بالحرب والسياسة ، إن اضطربت شئون المملكة . وفى سنة ١٢٨٢م (أوائل ٦٨١هـ) ثار عليه ولده سانشو وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه . فاتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبى يوسف

المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفدا من الأحبار يستمد منه الغوث والعون ضد ولده . فاستجاب السلطان لصريخه ، وعبر البحر فى قواته إلى الأندلس فى ربيع الثانى سنة ٦٨١ هـ ، وهرع الفونسو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من رندة مستجيرا به ، ملتمسا لنصرته ، وقدم إليه تاجه رهنا لمعونته . فأمده السلطان بمائة ألف من الذهب ليستعين بها على حشد الجند . قال ابن خلدون وقد رأى هذا التاج ببلاط بنى مرين أيام أن كان فى خدمتهم « وبقى بيدهم فخرا للأعقاب لهذا العهد »(١) . وغزا أبو يوسف أراضى قشتالة وحاصر قرطبة ، ثم زحف على طليطلة ، وعاث فى نواحيها ، ووصل فى زحفه إلى حصن مجريط « مدريد » . وتحاشى ابن الأحمر فى البداية لقاء السلطان لفتور العلائق بينهما ، ولتوجسه من محالفته لألفونسو ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكب وهى من الثغور التى تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتد لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشى ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور ، وصفا الجو بينهما نوعا . وعاث المنصور فى أراضى قشتالة مرة أخرى ، وغص جيشه بالسبى والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى على الجزيرة حاكما من قبله .

واستمرت الحرب الأهلية أثناء ذلك فى قشتالة بين الإبن والأب ، ولبث هذا النضال الدموى زهاء عامين ، حتى توفى الفونسو العاشر طريدا مهزوما فى سنة ١٢٨٤م (٦٨٣هـ) ، فكان لوفاته وقع عميق فى غرناطة والمغرب ، وأرسل كل من الملكين المسلمين عزاءه فى الملك العالم المنكود إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الإسلاميتين غريبا ازاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يؤازر الملك المخلوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على الفونسو العاشر يؤازر ولده الخارج عليه . والحقيقة ان ابن الأحمر كان يشهد تقاطر الجيوش البربرية إلى الجزيرة الخضراء بعين الجزع ويتوجس شرا من وجودهم بها ، وقد كانوا يحتلون معاقلها وثغورها ، ويظاهرون الخوارج عليه فى مالقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب فى شئون الأندلس على هذا

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٥ ، والاحاطة ج ١ ص ٣٧٧ ، واللمحة البدرية ص ٤٣ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦١ ؛ وراجع Dr. Lea : The Moriscos ; p. 3

النحو ، وكان مثل المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة ، تساوره دائما وتذكى جزعه . على أن موت الفونسو العاشر وانتهاء الحرب الأهلية فى قشتالة ، خفف من هذا التوتر بين المملكتين ، وكان ابن الأحمر يذكر فى الوقت نفسه غدر ملك قشتالة وخطر النصارى على مملكته ، فيجنح بعد التأمل إلى إيثار التفاهم مع ملك المسلمين .

وفى صفر سنة ٦٧٤هـ عبر السلطان المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة ، وزحف على أراضى النصارى ، وغزا مدينة شريش ، وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعاث فيها . ثم زحف المنصور على قرمونة والوادى الكبير ، وخرب جنده بسائط إشبيلية ولبلة وإستجة والفرنتيرة . وسر ابن الأحمر لاجتياح أراضى قشتالة على هذا النحو ، وبعث إلى السلطان مددا من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية فطاردت أساطيل العدو فى بحر الزقاق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجنح إلى طلب السلم ، وبعث إلى السلطان وفدا من الأحبار يطلب الصلح ويفوض السلطان فى اشتراط مايراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم مسالمة المسلمين كافة ، وأن يمتنع النصارى عن كل اعتداء على الأندلس وعلى أراضى المسلمين ومرافقهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين بدار الحرب (بلاد الاعداء) ، وإن تنبذ قشتالة سياسة الدس بين الأمراء المسلمين ، فقبل النصارى جميع الشروط المطلوبة ، وتعهدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدرا من الكتب العربية التى استولى عليها النصارى من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه « ثلاثة عشر حملا » وأرسلها السلطان إلى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية ، وكان من آثار التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، ان ترك المنصور ببلاط غرناطة بعض قرابته من مشاهير الغزاة ، وعليهم رئيس من بنى العلاء أقارب بنى مرين يسمى شيخ الغزاة ، وتولى بنو العلاء قيادة الجيوش الأندلسية عصرا ، وكانت لهم فى ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة (١) .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ .

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجم ثم يعود إلى المغرب، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى أدركه المرض ؛ وتوفى بالجزيرة فى المحرم سنة ٦٨٥ هـ (مارس سنة ١٢٨٥ م) ، بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد سواء بالمغرب أو الأندلس .

* * *

فخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشئون الأندلس متمرساً فيها . واستمرت علائق بلاط غرناطة وبنى مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطداً حينما قبل سلطان المغرب ؛ أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادى آش . وذلك أن محمداً الفقيه كان قد عين صهره أبا اسحاق ابن أبى الحسن بن اشقيلولة حاكماً على قمارش ووادى آش ، فلما توفى أبو اسحاق سنة ٦٨٢ هـ استرد ابن الأحمر قمارش ، وخرج عليه أبو الحسن ولد أبى اسحاق فى وادى آش وتحالف أولا مع ملك قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والنصارى ، أعلن أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب ، وأغضى ابن الأحمر حيناً عن تصرفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد بينه وبين السلطان أبى يعقوب ، سأله التنازل عن وادى آش فأجابه إلى سؤله ، ورحل عنها الثائر أبو الحسن إلى المغرب ملتجأ إلى بلاط فاس ، وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلها(١).

وفى أوائل سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ناكثاً لعهده ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ؛ فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد ، وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس ، فبعث سانشو أسطوله إلى بحر الزقاق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة السفن القشتالية ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية هزم فيها المسلمون (اغسطس سنة ١٢٩١ م). ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه ، فبعث أسطولا آخر لمقاتلة النصارى ، وانسحب النصارى هذه المرة . وعبر السلطان أبو يعقوب إلى الأندلس فى قواته فى رمضان سنة ٦٩٠ هـ ، واقتحم أرض النصارى ، وغزا شريش ووصل

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٢و٢١٣ .

فى زحفه حتى أحواز إشبيلية وعاث فيها ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وارتد إلى المغرب فى أوائل سنة ٦٩١ هـ .

وتوجس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب فسعى إلى محالفة ابن الأحمر وحذره من نيات المغاربة واستيلائهم على الثغور الأندلسية ولاسيما ثغر طريف مدخل الجزيرة ، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة ، واشترط ابن الأحمر أن تسلم اليه طريف عقب انتزاعها . وسير سانشو أسطوله إلى بحر الزقاق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد اليها . وعسكر ابن الأحمر فى قواته بمالقة على مقربة منها يعاون النصارى بالأمداد والمؤن ، وصمدت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى التسليم للنصارى . وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه ، مع أنه نزل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ؛ فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه فى الركون إلى وعود ملك قشتالة وفى مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعى ، وسنده المخلص فى رد عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر يخطب ود بنى مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمه الرئيس أباسعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا عزيز الدانى على رأس وفد من كبراء الأندلس ، إلى السلطان أبى يعقوب فى طلب المودة ، وتجديد العهد ، والاعتذار عن مسلكه فى شأن طريف ؛ فأكرم السلطان وفادتهم وأجابهم إلى طلب الصلح . ولما عاد الوفد إلى غرناطة سر ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه ، واعتزم الرحلة للقائه بنفسه ؛ وتأكيد المودة والاعتذار ، فعبر البحر إلى العدوة فى أواخر سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة ، ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان ، ثم جاء السلطان بنفسه إلى طنجة وتلقاه بمنتهى الإكرام والحفاوة ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضى الغربية وعدة من الحصون كانت من قبل فى طاعة ملك المغرب . وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمته ، وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السعود . فحاصرتها حيناً ولكنها لم تظفر بافتتاحها(١).

واستمر محمد بن محمد بن الأحمر أو محمد الفقيه فى حكم غرناطة أعواماً أخرى ، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بنى مرين . ثم توفى فى شعبان سنة ٧٠١ هـ (مايو

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٧ .

سنة ١٣٠٢ م) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بنى الأحمر فى عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى فيه من الأحداث والخطوب. وكان وزيره فى أواخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمى وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتابه فى ديوان الإنشاء، وكان رجلا وافر العزم قوى الشكيمة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوة نفسه أكبر أثر فى استقرار الأمور فى هذا العهد .

— ٢ —

وخلف محمد الفقيه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، وكان ضريراً ، وكان ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويصغى اليهم ويجزل صلاتهم ، محباً للإصلاح والإنشاء . وكان بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء ، فهو الذى أمر ببنائه على أبدع طراز ، وزوده بالعمد والنقوش والثريات الفخمة ؛ ولكنه لم يحسن تدبير شئون الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمى ، فاستبد بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ، وأخذت عوامل الانتقاض تجتمع وتبدو فى الأفق.

وفى عهده القصير اضطربت علائق مملكة غرناطة وبنى مرين مرة أخرى . والواقع أنه حاول فى بداية عهده ، أن يعمل على إحكام المودة بينه وبين بنى مرين ، فأرسل وزير أبيه أبا عزيز الدانى ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ليجددا عهد المودة والصداقة ، فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان ، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جند الأندلس الخبراء فى منازلة الحصون فأرسلت إليه قوة منهم أدت مهمتها أحسن أداء . ولاح أن أواصر المودة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين ، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب ، وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك ، ورد جند الأندلس (٧٠٣هـ) . وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان ، بأن أوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبى سعيد فرج بن اسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة فى الضفة الأخرى من البحر على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر فى الوقت نفسه لمحاربة السلطان ، إذا عن له أن يعبر إلى الأندلس ، وجهز الرئيس أبو سعيد حملة بحرية فى مياه مالقة

بحجة مدافعة النصارى ، ثم سيرها فجأة إلى سبتة ، وذلك فى شوال سنة ٧٠٥هـ (١٣٠٦م) . وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبى العلاء المرينى ، فاستولت على سبتة ، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبد بأمرها ، وأعلن انضواءها تحت لواء ابن الأحمر ، وقبض على ابن العزفى حاكمها من قبل السلطان وآله ، وأرسل إلى غرناطة . ووقف السلطان أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد لذلك الغدر ، وبعث حملة بقيادة ولده أبى سالم إلى سبتة فحاصرها حيناً ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها وارتد أدراجه ، وخرج فى إثره عثمان بن أبى العلاء فى جند الأندلس ، وعاث فى أحواز سبتة وما جاورها (سنة ٧٠٦ هـ) .

وكان لتطور الحوادث على هذا النحو أسوأ وقع فى نفس السلطان أبى يعقوب ؛ فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة ، ولكن حدث بينما كان يجد فى الأهبة أن اغتاله كبير الخصيان ، فى مؤامرة دبرها الخصيان للتخلص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفى قتيلا فى ذى القعدة سنة ٧٠٦ هـ (أبريل سنة ١٣٠٧م) ؛ ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبى ثابت وأبى سالم ، هزم فيها أبو سالم وقتل ، واستقر أبو ثابت على العرش .

وفى ذلك الحين كان عثمان بن أبى العلاء المرينى يتوغل بجنده فى شمال المغرب ، وكان هذا الجندى الحرى يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب ، ويعتمد فى تحقيق مشروعه على أنه سليل بنى مرين . ولما توغل بجنده جنوبا ، دعا لنفسه بالملك واستولى على بعض الحصون ، وأيدته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبى يعقوب حينما تصدت لوقفه ، وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداما وتوغلا واستفحل أمره ، ولاح الخطر يهدد ملك بنى مرين .

وما كاد السلطان أبو ثابت يستقر فى عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره للقضاء على تلك الحركة الخطيرة ، واسترداد سبتة ، فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم فى شهر ذى الحجة سنة ٧٠٧هـ ؛ ولما شعر عثمان بن أبى العلاء بوفرة قوته وأهبته ، بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه ، وزحف السلطان على الحصون الخارجة عليه فأثخن فيها واستولى عليها ، ثم سار إلى طنجة ؛ وامتنع عثمان بن أبى العلاء بقواته فى سبتة ، فسار إليها السلطان وضرب حولها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين

(تيطوان) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفى فى صفر سنة ٧٠٨ هـ (يوليه سنة ١٣٠٨م) (١) .

فخلفه فى الملك أخوه السلطان سليمان أبو الربيع ، وارتد بالجيش إلى فاس تاركا سبتة لمصيرها . فخرج فى أثره عثمان بن أبى العلاء فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان ، وقتل من الأندلسيين عدد جم ؛ وخشى عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة . ذلك أن عوامل الانتقاض التى لبثت بضعة أعوام تعمل عملها فى ظل محمد المخلوع ، تمخضت فى النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من كبار الدولة ، سئموا نظام الطغيان الذى فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . واضطرمت الثورة فى يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ (أوائل سنة ١٣٠٩م) . ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمد وأرغموه على التنازل عن العرش ، وتربع أخوه نصر مكانه فى الملك ، ونفى السلطان المخلوع إلى حصن المنكب ، حيث قضى خمسة أعوام فى أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضا إلى غرناطة حيث توفى فى سنة ٧١٣هـ(٢) .

ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ؛ وبلغه أن أهل سبتة قد سئموا نير الأندلسيين ، فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ؛ فلما وصلت إليها ثار أهل البلد ، وطردوا منها جند ابن الأحمر وعماله ، ودخلتها فى الحال جند المغرب واستولوا عليها ، وذلك فى شهر صفر سنة ٧٠٩هـ . واغتبط السلطان لانتهاء هذه المغامرة التى شغلت بنى مرين بضعة أعوام .

وكان سلطان غرناطة الجديد يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ولوعا بالأبهة والمظاهر الملوكية . وكان فى الوقت نفسه أديبا عالما بارعا فى الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكية قيمة . ولكنه لم يحسن السيرة ؛ ولم

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٧ .
(٢) الأحاطة ج ١ ص ٣٥٩ — ٣٦٤ ؛ واللمحة البدرية ص ٤٨ — ٥٤ .

يوفق فى تدبير الأمور . وسرعان ما سخط عليه الشعب كما سخط على أخيه من قبل . فاضطربت الأحوال ، وتوالت الأزمات ، وكانت حوادث سبتة نذيرا بتفاقم التوتر بين بلاط غرناطة وبلاط فاس . ومن جهة أخرى فقد ساءت العلائق بين غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال فى غرناطة ، فغزوا أرض المسلمين فى أوائل سنة ٧٠٩هـ ، ووضع فرديناند الرابع ملك قشتالة مشروعا جريئا للاستيلاء على جبل طارق . وكانت الأمداد المغربية قد انقطعت منذ استولى النصارى على طريف ، وشغل بنو مرين بالحوادث والثورات الداخلية ، وساءت علائقهم ببنى الأحمر . ورأى فرديناند الرابع أن الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطوله لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز فى الوقت نفسه إلى چايم (چايمس) ملك أراجون (رغون) أن يحاصر ثغر ألمرية لكى يشغل قوات الأندلس . وبدأ حصار ألمرية وجبل طارق فى وقت واحد فى أوائل سنة ٧٠٩هـ ، وبذل النصارى للاستيلاء على ألمرية جهودا فادحة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، وحفروا فى أسفل السور نفقا واسعا لدخولها ، فلقيهم المسلمون تحت الأرض وردوهم بخسارة فادحة ؛ ونشبت على مقربة من ألمرية معركة بين جند الأندلس بقيادة عثمان بن أبى العلاء وجند أراجون ، فهزم النصارى واضطروا إلى رفع الحصار ، ونجت ألمرية من خطر السقوط (١) . ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ طالعاً . فقد شدد النصارى حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم . وسقط الثغر المنيع فى يد النصارى فى أواخر سنة ٧٠٩هـ (مارس سنة ١٣١٠م) فكان لسقوطه وقع عميق فى الأندلس والمغرب معا ؛ فقد كان باب الأندلس من الجنوب ، وكان صلة الوصل المباشر بين المملكتين الإسلاميتين .

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة فداحة الخطأ الذى ارتكبه بمجافاة بنى مرين ، فبادر بارسال رسله إلى السلطان أبى الربيع يبدى أسفه على ماسلف ؛ ويسأله الصفح والصلح ، فأجابه السلطان إلى طلبه ، ونزل ابن الأحمر للسلطان

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٠ .

عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضية له وترغيباً فى الجهاد ، واقترن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة ، وأرسل السلطان إليه المدد والأموال ، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها (١) .

على أن هـذا التحسن فى علائق المملكتين الإسلاميتين ، لم يثن النصارى عن مشاريعهم تجاه غرناطة . ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة . وكانت أحوال المغرب تعوق بنى مرين عن استئناف الجهاد فى الأندلس على نطاق واسع ، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجع النصارى على التحرش بها والإغارة على أراضيها . ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس النصارى ، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذى يهدده سوى مصانعة فرديناند الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية . وكان ذلك مما زاد فى سـوء سيرته وفى سخط الشعب عليه . ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت فى الجنوب حيث أعلن الرئيس أبو سعيد فرج بن اسماعيل النصرى صاحب مالقة وابن عم أبى السلطان ، الخروج والعصيان . ورشح الخوارج للملك مكان نصر ، أبا الوليد اسماعيل وهو حفيد لاسماعيل أخى محمد بن الأحمر رأس الأسرة النصرية . ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أبو سـعيد وشيعته التغلب على ألمرية وبلش وغيرهما من القواعد الجنوبية . وفى أوائل سنة ٧١٢هـ (١٣١٣م) سار فى قواته إلى غرناطة ، وهرع السلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر ، فلجأ إلى غرناطة ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش ، وسار بأهله إلى وادى آش وتولى حكمها حتى توفى سنة ٧٢٢هـ (١٣٢٢م) (١) .

---

(١) الاحاطة ج ١ ص ٢٢٧ ؛ واللمحة البدرية ص ٥٧ — ٦٣ .

الفصل السابع

مملكة غرناطة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى

وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية

ولاية السلطان أبى الوليد اسماعيل . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل أمرائهم . سوء الأحوال فى قشتالة . غزوات المسلمين فى أراضى النصارى . مقتل السلطان اسماعيل وخلاله . ولاية ولده أبى عبد الله محمد . بطشه بوزيره ابن المحروق . الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة . الحاجب أبو النعيم رضوان . استنجاد ملك غرناطة بملك المغرب . أبو الحسن يرسل الامداد مع ولده . غزو الأندلسيين للجزيرة الخضراء . حصارهم لجبل طارق واسترداده من النصارى . المؤامرة على السلطان ومصرعه . السلطان أبو الحجاج يوسف . نكبته لبنى الملاء . الحاجب رضوان واستئثاره بالسلطة . نفيه وعوده الى الوزارة . الوزير ابن الجياب . بداية ظهور ابن الخطيب . تحرش القشتاليين بالمسلمين . قدوم الامداد من المغرب . هزيمة المغاربة ومقتل قائدهم . عبور السلطان أبى الحسن الى الأندلس . موقعة سالادو وهزيمة المسلمين . سقوط طريف والجزيرة الخضراء فى يد النصارى . سير السلطان أبى الحسن للمرة الثانية . هزيمته فى البر والبحر . تبادل المكاتبة والسفارة بين أبى الحسن وسلطان مصر . الوباء الكبير . عود القشتاليين الى الغزو . حصارهم لجبل طارق . تفشى الوباء بين النصارى ومصرع ملك قشتالة . نجاة جبل طارق . أقوال ابن الخطيب . وصف ابن بطوطة لحوادث الأندلس وأحوالها . مصرع السلطان أبى الحجاج يوسف . وصف ابن الخطيب للحادث . خلال يوسف . استعراض للعلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين .

جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة فى شوال سنة ٧١٣هـ (١٣١٤م) وامتاز عصره بتوطد الملك ، واستقرار الأمور ، واحياء عهد الجهاد . وفى أوائل عهده غزا القشتاليون كعادتهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة فى وادى فرتونة (٧١٦هـ) .

ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ، ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب . ولكن السلطان اسماعيل بادر إلى تحصينها وجهز الأساطيل لحمايتها من البحر ، فعدل القشتاليون عن مشروعهم ، وعولوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والأمداد من السلطان أبى سعيد سلطان المغرب ، فنكل عن معاونته ، وطالب بتسليم عثمان بن أبى العلاء لما كان منه فى حق بنى مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب ؛ وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم ، يقوده الدون بيدرو (دون بطره) والدون خوان الوصيان على الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدة من الأمراء القشتاليين ، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير انجليزى ، فبادر المسلمون إلى لقائهم فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطى لايجاوز ستة أو سبعة آلاف جندى منهم نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولكنهم صفوة المقاتلة المسلمين ، وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان ابن أبى العلاء ، جنديا جريئا وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعول فى الحال على لقائه فى معركة حاسمة . وفى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٧١٨ هـ (مايو سنة ١٣١٨ م) التقى فرسان الأندلس بطلائع النصارى وردوهم بخسارة فادحة . ثم زحف أبو سعيد فى نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فمزقوا شر ممزق ، وقتل منهم عدد جم ، بينهم دون بيدرو ودون خوان ، ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار ، وغرق منهم عند الفرار فى نهر شنيل عدة كبيرة ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتل والأسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والأسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وكان على العموم نصرا مشهودا أعاد ذكرى الجهاد المجيد . وكان معظم الفضل فى إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بنى العلاء الذين تزعموا الجيوش الأندلسية ، وتولوا قيادتها فى تلك الفترة حسبما أسلفنا . ويعلل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة فى ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبداوة .

ووضع المسلمون جثة الدون بيدرو فى تابوت من ذهب على سور الحمراء تنويها بالنصر ، وتخليداً لذكرى الموقعة (١) .

والواقع أن مملكة قشتالة كانت فى أوائل القرن الرابع عشر فى حالة سيئة ، وقد نفدت مواردها من الرجال والأموال ، بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ؛ وكان إسراف البلاط وبذخ الخلائل ، واختلاس الموظفين ، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ؛ وكانت الإدارة المالية فى يد اليهود ورجال الكنيسة وكلاهما يناوئ الآخر ، ويعمل على احباط مساعيه ؛ وكانت الوصايات المتعاقبة ، وما تعمد إليه من اغتصاب الأموال ، وسوء استعمال السلطة ، وفساد القضاء ، وتطاول الخلائل الملكية ، وسحق الحقوق العامة والخاصة ، وتفشى الجريمة ، تثير غضب الشعب وسخطه ؛ وكان اللون الصليبى للحروب الإسبانية فى ذلك العصر يوطد نفوذ جماعات الفرسان الدينية العديدة وهى التى كانت فى الواقع توجه مصاير الحرب والسياسة ، بيد أنها كانت تخفى تحت ستار الدين رذائل كثيرة كالفجور والجشع والارتشاء وغيرها (٢) .

وعلى أثر موقعة إلبيرة تعاقبت غزوات المسلمين فى أراضى النصارى وعادت الدولة الإسلامية الفتية تجوز عهدا من القوة بعد أن لاح أنها شارفت طور الفناء .

ففى سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) زحف السلطان اسماعيل على مدينة بياسة الحصينة وحاصرها بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلمت . وفى رجب من العام التالى (٧٢٥هـ) سار اسماعيل إلى مرتوس (مرتنس) واستولى عليها عنوة ، وكانت أعظم غزواته ، وامتلأت أيدى المسلمين بالسبى والغنائم . ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكللا بغار النصر . بيد أنه لم تمض على عوده ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة ، وكان قاتله ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ظفر بها فى موقعة مرتوس ، وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد رده بجفاء وأنذره

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ ، و ج ٧ ص ٢٥٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٢٣٠ ؛ والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠

(٢) راجع : Scott : ibid ; V. II. p. 476-78

بمغادرة البلاط ، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحا حيث توفى على الأثر ، وكان مصرعه فى السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥هـ (يونيه سنة ١٣٢٥م) .

وكان السلطان اسماعيل يتمتع بخلال باهرة ، وكان يشتد فى إخماد البدع وإقامة الحدود . وفى عهده حرمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاقى ، وحرم جلوس الفتيات فى ولائم الرجال ، وعومل اليهود بشئ من الشدة ، وألزموا أن يتخذوا لهم شعارا خاصا بهم ، هو عبارة عن العمائم الصفراء (١) .

فخلفه ولده أبو عبد الله محمد وهو فتى يافع لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمه نصرانية تدعى علوة ، وأخذ له البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وقام بكفالته بضعة أشهر حتى توفى ؛ ثم خلفه فى الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد ابن المحروق ، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة ؛ فحقد عليه السلطان الفتى وكان رغم حداثته مقداماً قوى النفس ، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلب عليه ، فقتل بأمره فى المحرم سنة ٧٢٩هـ .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة ، وعلى رأسهم عثمان بن أبى العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولاسيما ألمرية ، وانضم إليهم عم السلطان ، محمد بن فرج بن اسماعيل ، فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع محلية ، كان النصر فيها سجالا بينهما . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك الفرصة ، فاثخنوا فى الأراضى الإسلامية واستولوا على ثغر وبذه وعدة من الحصون . ولما تفاقم عيث النصارى آثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه ، وعقدت بينهما الهدنة على أن يستقروا بوادى آش باسمه وتحت طاعته . وتولى تدبير الأمور بعد مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو النعيم رضوان النصرى ، فهدأت الفتنة واستقرت الأمور نوعاً . ولكن ابن الأحمر كان يتوجس شراً من اضطراب الأحوال فى مملكته ومن تربص النصارى بها ، ورأى أن يتجه بصريخه إلى بنى مرين مرة أخرى . وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا بشئونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢هـ) ، فلما

(١) الاحاطة ج ١ ص ٢٢٩ — ٢٣٣ ؛ واللمحة البدرية ص ٧١ — ٧٤ .

اشتدت وطأة النصارى على غرناطة ، عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب السلطان أبي سعيد (سنة ٧٢٩هـ) ، لتكون رهينة ومنزلا للأمداد المرجوة من وراء البحر ؛ ولكن النصارى استولوا على معظم حصونها ؛ وأضحى طريق الجواز ولاسيما بعد ضياع جبل طارق عسيرا محفوفا بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر في أواخر سنة ٧٣٢هـ إلى عدوة المغرب ، وقصد إلى فاس مستنجدا بملك المغرب ، السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب المريني ، فاستقبله السلطان بمنتهى الحفاوة ، وشرح له ابن الأحمر ماانتهت إليه شئون الأندلس ، وما ترتب على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين ، ورجاه الغوث والعون . وكان السلطان أبو الحسن مشغوفا بالجهاد واستئناف ماتصرم من أسبابه ، فاستجاب لدعوته وبعث معه الامداد بقيادة ولده أبي مالك لمنازلة جبل طارق وافتتاحها ، وتلاحقت في أثرهم السفن تحمل المدد والعدد والمؤن . وحشد ابن الأحمر قواته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها . وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب في بحر الزقاق ليحول دون وصول الأمداد إلى النصارى ، وهرع ملك قشتالة (الفونسو الحادي عشر) في قوة من الفرسان لإنجاد الحامية المحصورة ، فبادر ابن الأحمر إلى مهاجمة النصارى وهزمهم امام جبل طارق ، وشدد المسلمون الحصار على الثغر ، وقطعوا كل صلاته من البر والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حال الحامية النصرانية ، واضطرت إلى التسليم . وبذلك استعاد المسلمون هذا الثغر المنيع قبل مقدم الجيش القشتالي ، وذلك في أواخر سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣م) ، وكان النصارى قد استولوا عليه منذ أيام السلطان نصر في سنة ٧٠٩هـ ؛ وكان أكبر الفضل في استرداده راجعا إلى معاونة السلطان أبي الحسن في البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى في الميدان وجها لوجه ، ورأى ملك قشتالة أنه لا أمل في كسب معركة انتهت فعلا بظفر المسلمين ، آثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين [1] . واعتزم السلطان محمد بن اسماعيل (ابن الأحمر) العودة بجنده إلى غرناطة ، ولكنه ما كاد يغادر جبل طارق في اليوم التالي عائدا إلى عاصمة ملكه ، حتى اغتاله في الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بني أبي العلاء ؛

---

(١) الاحاطة ج ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٥ ؛ واللمحة البدرية ص ٧٧ — ٨٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٥ وراجع : Scott: ibid ; Vol. II. p. 464.66

وكان أولئك القواد المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان بن أبى العلاء قد استفحل أمرهم فى الدولة وأخذوا ينازعون السلطان فى أمر تصرفاته ، وبدأ ابن الأحمر يتبرم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينما عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه فى شأنهم وسبيل الخلاص منهم ، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شرا فأتمروا للتخلص منه قبل أن يبطش بهم ، ولحق به المتآمرون حين عوده واغتالوه طعنا بالرماح ، وتركت جثته فى العراء حينا حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها (١) .

— ٢ —

وولى العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبى الوليد ، وهو فتى فى السادسة عشرة . وكان من أعظم ملوك بنى نصر وأبعدهم همة وأرفعهم خلالا . وكان عالما شاعرا يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته وأروعها . وما كاد يتبوأ العرش حتى عنى بتتبع بنى العلاء قتلة أخيه ، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه تحقيقا لرغبة السلطان أبى الحسن . ثم نفاهم فى السفن إلى تونس وانتهت بذلك رياستهم بالأندلس بعد أن طالت زهاء نصف قرن . ولما نزلوا على سلطان تونس أبى يحيى ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم ، فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفا عنهم أبو الحسن ، وأكرم مثواهم مدى حين ، ولكنه عاد فقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم ظلام السجن (٢) .

وقام بتدبير الأمور للسلطان أبى الحجاج وزير أخيه الحاجب أبو النعيم رضوان ، وكان هذا الوزير القوى الذى لعب فى تاريخ غرناطة دوراً ذا شأن . من أصل نصرانى قشتالى أو قطلونى ، وسبى طفلا فى بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ فى بلاط السلطان أبى الوليد اسماعيل . وظهرت نجابته وصفاته الممتازة ، فعهد إليه بتربية ولده أبى عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه تولى وزارته الحاجب رضوان ، فأظهر فى تدبير الشئون كفاية ممتازة ، وقاد بعض الغزوات الناجحة إلى أرض النصارى . ولما تولى الملك أخوه يوسف وقع الإجماع

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

على اختياره للوزارة ، واستقرت الأمور فى عهده وساد الأمن والرخاء. وأنشأ بغرناطة مدرسة فخمة هى الأولى من نوعها ، وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأصلح كثيرا من الحصون الداخلية ؛ ولكنه استبد بالأمر واستأثر بكل سلطة كسائر المتغلبين على السلطان . فلما شعر السلطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعايات فى حقه نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى ألمرية ، وذلك فى رجب سنة ٧٤٠ هـ. ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر حينما شعر بالفراغ الذى أحدثه تنحيه عن تدبير الشئون ، فاستمر فى منصبه حتى نهاية عهده (١) .

وكان من بين وزراء السلطان يوسف الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبوالحسن على بن الجيّاب ؛ وقد تقلب فى ديوان الإنشاء حتى ظفر برياسته . وكان من زملائه وأعوانه فى ديوان الإنشاء عبد الله بن الخطيب والد لسان الدين . ولما توفى عبدالله خلفه فى خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الجياب . فلما توفى ابن الجياب سنة ٧٤٩هـ فى الوباء الكبير خلفه فى الوزارة ، وبزغ نجم مجده من ذلك الحين .

وفى عهد السلطان يوسف كثرت غزوات النصارى لأراضى المسلمين ، وكان الفونسو الحادى عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف باشتداد وطأة القشتاليين وضعف وسائله فى الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبى الحسن على بن عثمان ملك المغرب ، فأرسل الأمداد للمرة الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبى مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد . وتوجست اسبانيا النصرانية من مقدم الجيوش المغربية شراً ، واعتزمت أن تواجه الغزاة فى قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراجون والبرتغال إلى مياه جبل طارق بقيادة الدون جوفرى تنوريو ليمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحملة ، وسارت قوى اسبانيا المتحدة للقاء المسلمين . وكان أبو مالك فى تلك الأثناء قد زحف إلى أراضى النصارى واجتاح سهل باجانا وحصل على غنائم لاتحصى ؛ وهنا فاجأه الاسبان قبل أن يستطيع الارتداد إلى أراضى المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة وقتل أبو مالك ، وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) .

---

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها .

وعندئذ عول السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية ؛ وجاز السلطان البحر إلى الأندلس فى أوائل المحرم سنة ٧٤١هـ (يوليه سنة ١٣٤٠م) ونزل بسهل طريف ولحق به السلطان يوسف فى قوات الأندلس . وكانت الجيوش الاسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى الجزيرة الخضراء ، ورابط الأسطول النصرانى فى بحر الزقاق بين المغرب والأندلس ليمنع قدوم الأمداد والمؤن ، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته ، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين ، فشحت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم . وفى يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ (جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ، ويقال إن الأندلسيين كانت لديهم فى تلك الموقعة آلات تشبه المدافع ، وهى الآلات التى تطورت فيما بعد وكانت تسمى « بالأنفاط » . وتقدم الفونسو الحادى عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة ، فصد فى البداية بقوة ، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال . ولكن حدث عندئذ أن تسللت حامية طريف النصرانية إلى مؤخرة جيش المسلمين ، فدب الخلل إلى صفوفهم ؛ ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جم ، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص فى يد النصارى وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعا على الأثر بوحشية مروعة ، وانتشرت قوات المسلمين وبددت ؛ وفر السلطان أبو الحسن ، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله ، وارتد السلطان يوسف إلى غرناطة ؛ واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء ؛ وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة « العقاب » [1] وكان لها أعمق وقع فى المغرب والأندلس [2] .

---

(١) هى الموقعة التى نشبت بين الموحدين والنصارى فى الأندلس على مقربة من أبدة فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وفيها هزم الموحدون هزيمة شديدة . وتسمى موقعة العقاب بالأسبانية Navas di Tolosa

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦١ و ٢٦٢ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ واللمحة البدرية ص ٩٢ و ٩٣ . وراجع أيضاً Scott: ibid : V. II. p. 478-82

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين ، فغزا قلعة بنى سعيد من أحواز غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير (٧٤٢هـ) . وكان ملك المغرب فى أثناء ذلك يضطرم ظمأ الانتقام ويحشد قواته من جديد . ولما كملت أهبته أرسل أساطيله إلى بحر الزقاق ، وسار بالجيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بارسال أسطوله للقاء المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون ومزق أسطولهم (٧٤٣ هـ — ١٣٤٢ م) . وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء ، وسار السلطان يوسف فى جيشه لإنجاد الثغر المحصور ، وكان جيشه مجهزا بالآلات القاذفة الحديدة التى تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم .

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التى وقعت بالأندلس بين النصارى والسلطان أبى الحسن ، موضوعا لمكاتبات سياسية بين بلاط مراكش وبلاط القاهرة . وكان ثمة بين ملوك مصر والمغرب منذ قيام دولة بنى مرين سفارات ومكاتبات ردية متصلة . ففى سنة ٧٣٩هـ أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر والشأم سفارة من بعض أكابر دولته وبرفقتهم ابنته الأميرة الحرة تريد الحج ، ومعهم هدية فخمة من عتاق الخيل ونفيس المتاع والحلى قدرت بأكثر من مائة ألف دينار ، ومصحف كتبه السلطان بيده ، وزين بماء الذهب ووضع فى إطار فخم من الأبنوس والصندل ، ليودع فى الحرم الشريف ، فاستقبلهم الملك الناصر بالقاهرة أعظم استقبال وجهزهم بكل مايلزم ، وأرسل إلى ملك المغرب هدية جليلة (١) . ثم عاد السلطان أبو الحسن فكتب على أثر هزائمه أمام النصارى فى البر والبحر إلى سلطان مصر الملك الصالح بن الملك الناصر قلاوون كتابا ينوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ، ويبسط له ماوقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل لقتال النصارى ، ثم مفاجأة النصارى لسفنه فى البحر بأساطيل قوية ، وزحفهم على الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثا ، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال ، واستطالة الحرب ونفاد الأقوات ، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة الخضراء ، وما فتحه الله من أخذ جبل طارق قبل ذلك ، وأنه مازال يتأهب للجهاد بعد عوده . وقد كتب هذا الكتاب فى صفر سنة ٧٤٥هـ .

---

(١) المقريزى فى السلوك فى دول الملوك ج ٢ (٢) ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٦٤ .

ورد ملك مصر على كتاب ملك المغرب فى رمضان سنة ٧٤٥هـ بكتاب رقيق يبدى فيه أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ؛ ويعزيه عن فقد أسطوله وما نزل به من هزائم ، ويقول إن الحرب سجال ، وإن فى سلامته الكفاية وإن الله قد يمن عليه بالظفر مرة أخرى ، ويبدى اغتباطه لاستيلاء السلطان على ثغر جبل طارق (١) .

وهنا طافت بالأندلس واسبانيا تلك النكبة المروعة التى عصفت بالمشرق والمغرب معا ، ونعنى بذلك الوباء الكبير الذى اجتاح سائر الأمم الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط فى سنة ٧٤٩هـ — ٧٥٠ هـ (١٣٤٨م) . وكان بدء ظهوره على مايرجح فى ايطاليا فى ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيرا من سكانها ، وفى مقدمتهم عدد من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا الوزير ابن الخطيب تلك المحنة التى كان معاصرا لها وشاهد عيان لروعها وفتكها فى رسالة عنوانها : « منقذ السائل فى المرض الهائل » .

ولبث ملك قشتالة أعواما أخرى على خطته من إرهاق المملكة الإسلامية والعيث فيها ، والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم ، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية ، وما شجر بينهم من خلاف . وفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمى بهذه الغزوة إلى غاية هامة هى الاستيلاء على جبل طارق . وكان هذا الثغر مايزال منذ عصور أمنع ثغور المسلمين وأشدها مراسا . فلما رأى النصارى استحالة أخذه عنوة ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قوية ، ورابط ملك غرناطة بجيشه فى مؤخرة النصارى ؛ واستمر حصار جبل طارق زهاء عام كامل والمسلمون صامدون كالصخرة التى يدافعون عنها ، وقد عيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء فى الجيش النصرانى وهلك ملك قشتالة فى مقدمة من هلك من جنده ، فكان ذلك نذيرا بخلاص الثغر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر النصارى إلى رفع الحصار (٧٥١ هـ — ١٣٥٠م) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروبا

---

(١) لم ينقل الينا القلقشندى فى صبح الأعشى نص هذين الكتابين . ولكن نقلهما الينا المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ — ٥٤٦ .

موثرة من تسامح الفروسة ، فتركوا موكب الملك المتوفى يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريما ، وخلف الفونسو على العرش فى الحال ولده بيدرو (بطره) الملقب بالقاسى (١) .

ووصف ابن الخطيب كاتب الأندلس وشاعرها ، وقد كان يومئذ من كتاب السلطان يوسف ، هذه الأحداث الخطيرة فى رسالة بعث بها السلطان إلى ملك المغرب ، وفيها يشير إلى مهاجمة العدو لجبل طارق وطمعه فى الاستيلاء على الأندلس ويقول : « وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانهيام الأبواب ، والأمور التى لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد وساءت الظنون فى هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة ، والبحور الزاخرة والمرام البعيد » ثم يصف كيف تداركت رحمة الله الأندلس بعد ذلك فهزم العدو ولم يبلغ مراما(٢).

وكان لحصار جبل طارق ومصرع ملك قشتالة تحت أسواره ، صدى عميق فى المغرب وفى أنحاء العالم الإسلامى . ويشير الرحالة الأشهر ابن بطوطة الطنجى الذى زار الأندلس بعد ذلك بقليل فى رحلته إلى تلك الحوادث ، وإلى ما كان يتصوره ملك قشتالة ، من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقى من بلاد الأندلس ، فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذى كان من أشد الناس خوفاً منه ، ثم يصف لنا أهمية جبل طارق الدفاعية وما بذله السلطان أبو الحسن عقب استرداده من جهود فادحة لتحصينه ، وتجديد أسواره وحصونه ، وإنشائه لدار الصناعة ، وما قام به ولده السلطان أبو عنان بعد ذلك من تجديد تحصيناته وشحنه بالعدد والأقوات . ويصف لنا ابن بطوطة بعد ذلك ثغور الأندلس وقواعدها الأخرى التى طاف بها يومئذ ، مثل رندة ومربلة ومالقة وبلش ، وما شاهده فيها من الخيرات والصناعات الفريدة ولاسيما صناعة الخزف بمالقة ، ثم يعرج على غرناطة وينعتها بعروس الأندلس ، ويصف لنا رياضها وبساتينها الغراء ، ويشير إلى ملكها فى عهد دخوله إياها وهو السلطان أبو الحجاج يوسف ، ولم يوفق يومئذ إلى لقائه لمرض ألم به .

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ و ٥٧١ .

وتدلى أوصاف ابن بطوطة بأن الأندلس كانت يومئذ بالرغم من توالى غارات النصارى عليها وعيثهم فى ربوعها ، بلاداً زاهرة نضرة ، تزخر بالخيرات والنعم ، وتموج بالملايين من سكانها النشطين الأذكياء ، وصناعاتها الممتازة ، وتحتشد فيها جمهرة كبيرة من العلماء والفقهاء والكتاب والشعراء ، مما يدل على أنها كانت فى هذا العصر تجوز أيضاً نهضة أدبية زاهرة (١) . ولا غرو فقد كان هذا العصر هو الذى سطع فيه نجم ابن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى المائة الثامنة ، وبلغ فيه الشعر والترسل يومئذ ذروة الروعة والبهاء .

واستمر أبو الحجاج يوسف فى الحكم بضعة أعوام أخرى ساد فيها السلام والأمن ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة أثناء صلاته المسجد الأعظم فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) قتله مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فمزق وأحرق بالنار على الأثر (٢) . وكان مقتله وهو فى السابعة والثلاثين فى عنفوان فتوته ومجده . ويصف لنا ابن الخطيب وقد كان من شهود هذا المنظر المؤسى ، مقتل السلطان ، فى قوله من رسالة بعث بها إلى السلطان أبى عنان ملك المغرب « ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلا شقى قيضه الله تعالى لسعادته ، غير معروف ولا منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تخلل الصفوف المعقودة ، وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المحشودة ، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة ، وانما هو خبيث ممرور وكلب عقور ، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور ، فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين ، فما أفلته حتى قبض عليه من الخلصان الأولياء ، من خير ضميره وأحكم تقريره ، فلم يجب عند الاستفهام جواباً يعقل ولا عثر على شئ عنه ينقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته للحين أيدى التمزيق وأتبع شلوه بالتمزيق »(٣) . ودفن السلطان الشهيد فى مقبرة الحمراء إلى جانب آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة . وكان السلطان يوسف فى الواقع أعظم

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٨ .

(٢) اللمحة البدرية ص ٩٧ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٥ .

ملوك غرناطة همة وعزماً ، وأبدعهم خلالا ، وكان فوق فروسته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة ؛ وهو الذى شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء ، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها ، وهو الذى أسبغ على هذا الصرح العظيم عمنشآته وزخارفه ، بهاءه وروعته التى ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفى عصره زهت العلوم والآداب ، وذاعت شهرة العلماء المسلمين ولاسيما فى الفلك والكيمياء .

* * *

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بنى مرين مواقف متناقضة ، ويتردد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجس ؛ وليس من شك فى أن بنى مرين كانوا عضداً قيماً لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدوا لها فى ميدان الجهاد وفى مقاتلة النصارى خدمات جليلة ، وبذلوا فى ذلك السبيل تضحيات جمة ، وأعادوا بانتصارهم على النصارى فى غير موقعة حاسمة ، ذكريات الزلاقة والأرك ؛ ولولا غوث بنى مرين واشتغال مملكة قشتالة بحوادثها الداخلية غير مرة ، لما اشتد ساعد بنى الأحمر وسطعت دولتهم خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث الجسام ، واستطالت أيام الإسلام بالأندلس زهاء مائة عام أخرى . وقد كان من سوء الطالع ألا يدرك بلاط غرناطة خطر الخلاف مع الحليف الطبيعى الذى رتبه القدر فيما وراء البحر ، لإنجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن يجنح من آن لآخر إلى مخاصمة هذا الحليف ومحاربته ، كما حدث حينما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بنى مرين ازاء مملكة غرناطة أحياناً من الالتواء وبث الشكوك فى نفوس أمراء بنى نصر ، بما كانت تجنح إليه من مداخلة الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الإسلام تبدد فى معارك أهلية ، وقد كان حرياً أن تتضافر على مغالبة العدو المشترك . على أن الدولة المرينية ذاتها ، تدخل منذ وفاة السلطان أبى الحسن فى سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) فى دور انحلالها ، وتنحدر إلى غمر الحرب الأهلية ، وتشغل بشئونها الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد الوحيد ، الذى كانت تدخره وقت الشدائد . وقد استمرت العلائق بين غرناطة وبنى مرين عصراً آخر ، ولكنها غدت غير بعيد علائق بلاط ، تغلب عليها دسائس القصور ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى ، كما كانت تفعل أيام أبى يوسف

وأبى يعقوب وأبى الحسن ، ولم تعبر بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج فى جبل طارق ضد ملك غرناطة حسبما يجىء ؛ وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة الإسبانية ، تغالب قوى النصرانية بمفردها وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها الأخير فى اختلاف كلمة النصارى ، وانشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .

الفصل الثامن

الأندلس بين المدّ والجزر

ولاية محمد الغنى بالله . وزيره ابن الخطيب . سفارته الى السلطان ابى عنان . ثورة حاكم جبل طارق المرينى . الثورة فى غرناطة . مقتل الحاجب رضوان . عزل الغنى بالله وفراره . ولاية أخيه اسماعيل . جواز الغنى بالله وابن الخطيب الى المغرب . ترحيب ملك المغرب بهما . قصيدة ابن الخطيب . ابن الخطيب وابن خلدون . مصرع سلطان المغرب وتغلب الوزير عمر على الدولة . الثورة فى غرناطة ومقتل السلطان اسماعيل . عبور الغنى بالله وابن الخطيب الى الأندلس . استرداد الغنى بالله للعرش . زيارة ابن خلدون للأندلس وسفارته الى بلاط قشتالة . الحرب الأهلية فى قشتالة . موقعة نجارا . موقعة مونتيل . مصرع بيدرو ملك قشتالة وولاية أخيه الكونت هنرى . رواية ابن الخطيب عن هذه الحوادث . وزارة ابن الخطيب الثانية . استئثاره بالسلطة وجنوحه الى الاستبداد . تقلص نفوذه وفراره الى المغرب . اتهامه بالزندقة ومقتله . بعد نظره السياسى . شعوره بمصير الأندلس . جهود الغنى بالله الانشائية . توطد الصداقة بينه وبين بلاط مصر . سيادة السلام والأمن فى عصره . غزواته فى أرض النصارى . وفاته وولاية يوسف الثانى . وزيره خالد . عقد السلم بين الأندلس وقشتالة . ثورة محمد ولد يوسف . وفاة يوسف وولاية ولده محمد . اعتقاله لأخيه يوسف . الوزير ابن زمرك ومصرعه . الحرب بين المسلمين والنصارى . استنجاد الأندلس بملوك المغرب . غزو النصارى لأحواز رنده . غزو المسلمين لأراضى قشتالة . الهدنة بين الفريقين . وفاة محمد . العلائق بين غرناطة وأراجون . ولاية يوسف الثالث . نقض القشتاليين للهدنة . زحفهم على أراضى غرناطة . سقوط أنتكيره وهزيمة المسلمين . تجديد الهدنة . ثورة جبل طارق واخمادها . السلم بين المسلمين والنصارى . حفلات الفروسية الأندلسية . وفاة السلطان يوسف وولاية ولده محمد الأيسر . صرامته وتكبره . الوزير يوسف بن سراج . بنو سراج وأصلهم . تعاقب الفتن فى غرناطة . غزوات النصارى . نشوب الثورة وسقوط الأيسر . ولاية محمد الزغير . خلاله وصفاته . مطاردته لبنى سراج . التجاؤهم الى بلاط قشتالة . السعى لاعادة الأيسر . زحفه على غرناطة ودخوله الحمراء . مصرع الزغير وولاية الأيسر الثانية . الحرب بين الأيسر والنصارى . الفتن والدسائس حول عرش غرناطة . قيام يوسف بن الأحمر بمعاونة النصارى . الحرب بينه وبين الأيسر .

هزيمة الأيسر وولاية يوسف . وفاته وولاية الأيسر الثالثة . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لجبل طارق وهزيمتهم . تطور الحوادث فى غرناطة . ثورة محمد الأحنف وولايته . الأمير سعد بن اسماعيل وسعيه لانتزاع العرش . تدخل النصارى ودسائسهم . الحرب الأهلية فى غرناطة . هزيمة الأحنف وولاية ابن اسماعيل . خلاله وصفاته . الخلاف بينه وبين قشتالة . غزو القشتاليين لغرناطة . سقوط جبل طارق . انحلال دولة بنى مرين وقيام دولة بنى وطاس . قصور المغرب عن انجاد الأندلس . خضوع سلطان غرناطة لقشتالة . الصراع بين العرش والأسر الكبيرة . تفكك المملكة الاسلامية . وفاة السلطان ابن اسماعيل . فتح الترك لقسطنطينية وصداه فى اسبانيا . احياء النزعة الصليبية . تربص النصرانية بالأندلس .

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبى الحجاج فى صبيحة يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ ، حتى خلفه فى الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله ، وكان حدثاً يافعاً ، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبو النعيم رضوان . وكانت غرناطة بعد ما توالى عليها من الخطوب والأزمات فى أواخر عهد أبيه يوسف قد تنفست الصعداء نوعاً منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين بن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية وأعظم شعراء الأندلس وكتابها يومئذ . وكان هذا المفكر البارع أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ فى الغرب الإسلامى مركز الصدارة فى التفكير والكتابة ، هما ابن خلدون وابن الخطيب . وكان مولد ابن الخطيب فى لوشه من أعمال غرناطة فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ودرس الطب والفلسفة وبرز فى النثر والنظم (١) ، وخدم الدولة منذ حداثته فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبى الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبراء الأندلس سفيراً من قبله إلى ملك المغرب السلطان أبى عنان المرينى (٧٥٥هـ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بنى الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر

(١) سنعود إلى ترجمة ابن الخطيب واستعراض حياته الأدبية بافاضة فى الكتاب الرابع .

فتأثر السلطان لقصيدته ووعد باجابة سائر مطالبه ؛ وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له فيما تلا من حوادث الأندلس أعظم نصيب (١) .

وفى أواخر سنة ٧٥٦هـ (أواخر سنة ١٣٥٥م) حاول حاكم جبل طارق المرينى عيسى بن الحسن بن أبى منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ربما أفسحت للنصارى ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب ؛ ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر ، وأخمدت ثورته فى المهد ، وقبض عليه وعلى ولده ، وأرسلا مصفدين إلى المغرب فقضى باعدامهما ؛ وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته(٢).

وفى أوائل عهد السلطان محمد شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت غرناطة شر العدوان مدى حين . ولكن الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطورات جديدة . ففى رمضان سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩م) نشبت فى غرناطة ثورة فقد فيها الغنى بالله ملكه . وكان أخوه اسماعيل المعتقل فى بعض أبراج الحمراء تؤازره جماعة من الزعماء ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ، وتدعو له سرا ، وتترقب الفرص للوثوب بمحمد ، وكانت أمه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحول بولده إلى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠هـ) ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا باسماعيل أخى السلطان ملكا مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ففر إلى وادى آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد فاستبقاه فى الوزارة لمدى قصير . ثم ارتاب فى نياته وأمر باعتقاله . وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودة وصداقة بملك المغرب السلطان أبى سالم ولد السلطان أبى الحسن . وكان أبو سالم قد لجأ إليه حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيرا يسعى لدى حكومتها فى إجازة السلطان المخلوع

---

(١) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٥ — ٧ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٧٣ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٤ .

ووزيره المعتقل إلى المغرب . فنجح السفير فى مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١هـ) . واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال . واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى ... عفت آيها الا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فهما أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى اذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العز والنصر

فكان لإنشاده أعظم وقع فى النفوس ، وتأثر السلطان لدعوته ونداثه أيما تأثر(١) . ولبث السلطان المخلوع فى بلاط فاس حينا ، وتوثقت بينه وبين المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة المرينية ، روابط المحبة والصداقة ، وعقدت أيضا بين المؤرخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وكان كلا المفكرين العظيمين يقدر مواهب صاحبه ويحله أسمى مقام ، وكان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة . وكان محمد ابن الأحمر يؤمل أن يسترد ملكه المنزوع بمعاونة بيدرو الثانى (بطره) ملك قشتالة تنفيذا للاتفاق الذى عقد بينهما ، ولكنه لم يفعل شيئا لتحقيق هذا الأمل . والواقع أن ملك قشتالة كان مشغولا باضطرابات مملكته ، فآثر أن يعقد السلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب لقى فيه السلطان أبو سالم مصرعه ، واستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب إليه الوزير ، ومازال محمد يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت الفرصة

---

(١) اللمحة البدرية ص ١٠٨ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٤و١٩٥ .

بوقوع الثورة فى غرناطة ومقتل منافسه السلطان اسماعيل على يد المتغلب عليه الرئيس أبو سعيد ؛ فجاز إلى الأندلس مع وزيره ابن الخطيب واستولى على مالقة ، ثم سار فى صحبه وعصبته إلى غرناطة فاستولى عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة ٧٦٣ هـ — ١٣٦١م) . ووفد عليه المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل ، فاحتفى به وأكرم مثواه ، وأرسله سفيرا عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ليوثق أواصر الصداقة بينهما (٧٦٥ هـ — ١٣٦٣م) ، فقصد ابن خلدون إلى بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة وأدى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . وهو يعرض لنا حوادث هذه السفارة فى « التعريف » بتفصيل شائق ، ويقول لنا إنه عاين آثار أسرته باشبيلية ، وقد كانت منزل بنى خلدون أيام الدولة الإسلامية ، وفيها سطع نجمهم حيناً ، وان ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ، وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرور ، وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته باشبيلية ، ولكنه أبى . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتم مهمته ، وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان . وسر السلطان لنجاحه وأقطعه قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش فى بلاط السلطان فترة أخرى ، معززا مكرما [1] . ولم يمض قليل على ذلك حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، وتمتعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة . وكان بيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقب بالقاسى الذى خلف أباه الفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٥٠م ، قد غلا فى استبداده وقسوته حتى أنه لم يحجم عن قتل زوجته الملكة بلانش دى بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ، وخرج عليه أخوه غير الشرعى الكونت هنرى دى تراستمارا ، ولد الينورا دى كزمان وفر إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس ، على أن يجمع له جيشا من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ، وأشرف

---

(١) راجع تفاصيل هذه السفارة فى ابن خلدون ، فى « التعريف » أو ترجمته لحياته ج ٧ ص ٤١٢ ، والاحاطة ج ٢ ص ١٥ .

على تنفيذ المشروع الدوق دى جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يومئذ . وقاد هنرى جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦م) فلم يقو بيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلى الشعب عنه ، وفر إلى ولاية جوين الفرنسية فيما وراء البرنيه ، واستغاث بالأمير ادوارد ولى عهد انجلترا الذى كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الانجليزى لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة فى قواته ، واستطاع الكونت هنرى بمعاونة شعبه ومعاونة ملك أراجون أن يحشد جيشاً عظيما . والتقى الفريقان فى « نجارا » فى الثالث من ابريل سنة ١٣٦٧ ، فهزم الكونت هنرى بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد بيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الانجليزى ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتد بقواته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطرام فى قشتالة ، ووثب الشعب ببيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنرى فغزا قشتالة فى أنصاره ، ونشبت بين الفريقين فى « مونتيل » موقعة أخرى هزم فيها بيدرو وقتل ، وجلس أخوه مكانه على العرش (سنة ١٣٦٨م)[1] . وكان بين قوات الملك القتيل فرقة من حلفائه المسلمين تعاونه وتذود عنه .

وقد فصل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية فى قشتالة فى تلك الفترة ، وقد كان معاصرا لها وقريبا من مسرحها . وروايته تدل على حسن اطلاعه ودقة فهمه لسير الحوادث ، فهو يقول لنا مثلا بعد أن أشار إلى ثورة الكونت هنرى على أخيه واستيلائه على العرش :

« ولما توسد له الأمر تحرك لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غليسية فى البحر ، واستقر وراء دروب قشتالة ، وانتبذ عن الخطة القشتالية ، ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة (انجلترا) وهو المعروف ببرقسين ، وبين أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام ، فقبله ولد السلطان المذكور بأول ماتلقاه من تلك الأرض ، وسفر بينه وبين أبيه ، فأنكر الأب استئذانه اياه والمراجعة فى نصره ، حمية له وامتعاضا منه . وحال هذه الأمة غريبة فى الحماية الممزوجة بالوفاء ، والرقة والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الأول ، وأخبارهم فى القتال غريبة .... وبعد انقضاء سبعة

---

(١) David Hume: History of England V. II. p. 202-20

عشر يوما كان رجوعه ورجوع الرئيس المذكور معه مصاحبا بأمراء كثيرين من أخدانه ، وبعد أن تسلموا مالا كثيرا . . . وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس ابريل العجمى موافقة شعبان من عام ثمانية وستين (ابريل ١٣٦٧م) . وكان هذا الجمع الإفرنجى آتين من الأرض الكبيرة (فرنسا) ... وكان على مقدم القوم الدك (الدوق) أخو البرنس (Prince of Wales) وكان فى مقدمة القند (الكونت) المستأثر بملك قشتالة أخوه شانجة (سانشو) ...الخ ». ثم يحدثنا بعد ذلك عن هزيمة « القند » وفراره إلى فرنسا ، واستمرار الفتنة بينهم إلى وقت كتابة روايته [1].

تولى ابن الخطيب وزارة الغنى بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر فى البلاط وفى الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على نفوذ منافسه الوحيد فى السلطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجو وتبوأ ذروة القوة والسلطان . وكان من معاونيه فى الوزارة تلميذه الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله بن زمرك ، وقد تولى كتابة السر فى كنفه وتحت رعايته . والظاهر ان اجتماع السلطان والنفوذ فى يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سببا فى انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، فجنح إلى الاستبداد وسوء السيرة ، وبث حوله معتركا من البغضاء والخصومة ، وكثرت فى حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالإلحاد والزندقة لما ورد فى بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب فى النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر وخشى العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس ، وسار إلى الثغور الغربية فى نفر من خاصته بحجة تفقدها وعبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣هـ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع فى الوزارة للمرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه فى الوزارة تلميذه ابن زمرك ، وكان قد انقلب عليه فى أواخر أيامه ، وغدا من خصومه وأشدهم سعيا إلى نكبته .

وقضى ابن الخطيب فى منفاه زهاء ثلاثة أعوام ، ولكن بلاط غرناطة وخصومه فى الأندلس لم تفتر همتهم عن ملاحقته ، فسعوا لدى بلاط فاس فى القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٢٤ –

وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذا لحكم الدين ، ودُس عليه بعض الأوغاد ، فقتلوه فى سجنه وذلك فى أواخر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥م) . وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ضحية الغدر السياسى والتعصب الشائن(١) .

وكان ابن الخطيب سياسيا بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحا ، ويستشف بنافذ بصيرته ماوراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه واخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله فى ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثرة تفيض قوة وبلاغة ، فى الحث على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم (٢).

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح بعدم الإسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذى لايصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى فالإجمال فى الطلب أولى » (٣).

وسلك الغنى بالله فى حكمه مسلك القوة والحزم واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الإنشاء والعمران ، فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) فى غرناطة وأنفق عليه أموالا عظيمة ، وعنى بتحصين الثغور وعمل على بث روح الجهاد والحمية فى النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته فى ذلك وسفيره

---

(١) تناولنا هذه الحوادث بالتفصيل عند كلامنا عن حياة ابن الخطيب فى الكتاب الرابع . وراجع ابن خلدون ج ٧ ص٣٤٠و٣٤١ . هذا وقد دون ابن الخطب ما شهده فى منفاه فى المغرب لأول مرة من الحوادث والمحن فى كتاب سماه « نفاضه الجراب فى علالة الاغتراب » (النفحة البدرية ص ١١٣) .

(٢) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيرا من هذه الرسائل . وراجع الاحاطة ج ٢ ص ٣١ — ٣٩ .

(٣) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وصيه ابن الخطيب كاملة ، وهى من أبدع الوصايا الأبوية السياسية (ج ٢ ص ٤٢٥ وما بعدها) وكذلك فى أزهار الرياض ج ١ ص ٣٢ وما بعدها .

إلى جمهور الأمة ، وزيره القوى البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور برسائله وخطبه المؤثرة حسبما أسلفنا .

وفى أواخر سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦م) نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه . وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فمزقهم الجند وقبض على زعيمهم ، وزاد فشل المؤامرة مركز السلطان توطدا .

وفى عصر الغنى بالله توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتصلت بينهما السفارة والمكاتبة . ومما وقفنا عليه من ذلك رسالة بعث بها « أمير المسلمين » بالأندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، إلى سلطان مصر الأشرف شعبان ، وهى من إنشاء وزيره ابن الخطيب . وفيها يعرب سلطان غرناطة عن اغتباطه بتلقى رسالة سلطان مصر ، ويشيد بموقف غرناطة كمركز للجهاد ، وتعرضها الدائم لمهاجمة العدو ، ويتقدم إلى السلطان الأشرف بالتهنئة على مااحرزت جنوده من نصر حاسم على الفرنج فى موقعة الإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) [١] ، وانه مما يزيد فى غبطتهم أن هذا الحادث لابد أن يذكى شعور الإشفاق والعطف على الأندلس ، التى يدهمها الأعداء بشرهم من البر والبحر بلا انقطاع [٢] .

واستطال حكم الغنى بالله حتى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) وساد الأمن والسلام فى عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بحوادثها الداخلية وحروبها الأهلية ، وغلب التهادن فى تلك الفترة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطية أن تنتهز فرصة الحوادث الداخلية فى المملكة النصرانية ، وأن تمد يد التحالف والحماية غير مرة لملك قشتالة المخلوع بيدرو القاسى ، إذكاء للحرب الأهلية بين النصارى . ولم يخل عصر الغنى بالله من مواطن الجهاد ، فقد استطاع أن ينتزع ثغر بطرنة الواقع بين مالقة ورندة من أيدى النصارى (٧٦٧هـ) ، وغزا مدينة جيان

---

(١) هاجمت حملة من الفرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الاسكندرية فى صفر سنة ٧٦٧ هـ ، واحتل الفرنج الاسكندرية أياما ولكنهم هزموا وطردوا بعد معارك شديدة .

(٢) يراجع نص هذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٧ — ١١٥ ، وهى نموذج بارز من أسلوب ابن الخطيب السياسى .

واستولى المسلمون على مافيها من الأقوات والنعم . ثم غزوا مدينة أبده وخربوها . وفى سنة ٧٧٠هـ غزا المسلمون الجزيرة الخضراء ، وكانت بيد النصارى ، واقتحموها بعد معركة طاحنة . وفى العام التالى سار المسلمون إلى أحواز إشبيلية عاصمة قشتالة وعاثوا فيها (١) ، وضربوا الحصار حول قرطبة واقتحموا أسوارها ، وكادت تسقط فى أيديهم . وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية فى تلك الفترة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ بعيد ، وكان عصر الغنى بالله عصرا ذهبيا مليئا بالسؤدد والرخاء والدعة ، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور .

— ٢ —

ولما توفى الغنى بالله سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) خلفه ولده يوسف أبو الحجاج (يوسف الثانى) ، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه ، فاستبد بالأمر وقتل إخوة يوسف الثلاثة سعد ومحمد ونصر فى محبسهم ؛ ثم سخط يوسف على وزيره وقتله لما نمى إليه من أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودى ، وزج الطبيب إلى السجن ثم قتل بعد ذلك (٢) . واستأثر يوسف بالسلطة ، وكتب إلى ملك قشتالة فى طلب المهادنة والسلم ، وأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا فى بعض المعارك السابقة ، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيليه ، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين .

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذ كان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده ، وزحف بالفعل فى أنصاره على الحمراء ، ولكن المحاولة فشلت ، وتفرق الثوار حين برز إليهم سفير مراكش وقد كان وقتئذ بالقصر ، وأنبهم على مسلكهم ، ونصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد النصارى (٣) .

وقام المسلمون فى عهد يوسف بالإغارة على أراضى النصارى فى أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم فى فحص غرناطة (المرج) La Vega فردهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة . ثم عاد الفريقان إلى التهادن والسلم .

---

(١) الاحاطة ج ٢ ص ٥٤ — ٥٨ .

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) Condé: Historia de la Dominacion de los Arabos en Espagna; Eng. tr.V. III. p.295

وتوفى السلطان يوسف فى أوائل سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل إنه توفى مسموما على أثر مكيدة دبرها سلطان المغرب المرينى لإهلاكه . وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع فى السم ، فلبسه يوسف ومسه أثناء ركوبه وهو عرقان . فسرى إليه السم وتوفى ، وهى رواية تحمل طابع الخيال المغرق (١) .

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لإقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثم قبض على أخيه يوسف وزجه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من مالقة ، وشدد فى الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الاطماع . بيد أنه كان فى الوقت نفسه أميرا موهوبا ، رفيع الخلال فياض العزم والشجاعة . ولأول ولايته استدعى الوزير أبا عبد الله بن زمرك لحجابته . وكان هذا الوزير الطاغية قد خلف أستاذه ابن الخطيب فى وزارة الغنى بالله مدى أعوام طويلة . فلما اشتد عيثه واستبداده نكبه الغنى بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث فى الوزارة هذه المرة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة وكثر خصومه ، وفى أواخر سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله (٢) .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وعقدت الهدنة فعلا بين الفريقين . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليون على بسائط غرناطة وعاثوا فيها ، فحشد محمد قواته وغزا ولاية الغرب (٣) وخربها ، واستولى على حصن أيامونت ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . وانتقم النصارى بالعود إلى غزو أراضى غرناطة . وكان هنرى الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجد فى الأهبة للحرب ويجهز الجيوش والأساطيل ، وكان محمد من جانبه يتأهب للدفاع ، ويراسل ملوك العدوة لإنجاده ؛ وبعث ملك

---

(١) Conde: ibid; V.III. p.297 ، وراجع الاستقصاء حيث يردد هذه الرواية نقلا عن مصدر إسبانى آخر ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠ ، وقد عرضنا إلى حياة الوزير ابن زمرك وآثاره الأدبية تفصيلا فى الكتاب الرابع .

(٣) غربى الأندلس وهى بالافرنجية Algarve محرفة عن الغرب .

تونس وتلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحرية ، ولكنها هزمت ومزقت تجاه جبل طارق . ثم توفى هنرى الثالث ملك قشتالة بعد ذلك بقليل (سنة ١٤٠٦م) وخلفه ولده يوحنا طفلا تحت وصاية أمه وعمه فرديناند . ومضى الوصى الجديد فى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوة والعزم ، فسار إلى غزو أراضى المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة واقتحم حصن باغه (١) ، وعاث فى تلك الأنحاء واسترد حصن أيامونت من المسلمين . وبادر محمد من جانبه بغزو أراضى قشتالة من ناحية الشرق وعاث فى ولاية جيان ، فاضطر فرديناند أن يسير إلى الشرق لإنجاد النصارى ، واستمرت المعارك بين الفريقين حينا ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة اشتد به المرض ولم يلبث أن توفى وذلك فى سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م) .

وكانت مملكة غرناطة ترتبط فى ذلك الوقت نفسه بمملكة أراجون بصلات المودة والصداقة ، ففى سنة ١٤٠٥م عقدت بين السلطان محمد وبين مارتن ملك أراجون وولده مارتن ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف لتنظيم العلائق السياسية والمبادلات التجارية الحرة ، والأمان بين الفريقين ، وتعهد كل فريق بأن تكون جميع البلاد والثغور فى مملكته مفتوحة امام تجارة الفريق الآخر ، وأن يقوم كل بمعاونة الآخر فيما عدا ضد حلفائه معاونة عسكرية ، تتمثل من جانب أراجون فى خمس سفن مشحونة ومسلحة ، ومن جانب غرناطة فى خمسمائة فارس(٢) .

ولما توفى محمد خلفه فى الملك أخوه يوسف ، وكان سجينا طوال حكمه بقلعة شلوبانية كما قدمنا . ودخل يوسف غرناطة فى حفل فخم واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ويعلق عليه الشعب آمالا كبيرة . وكان أول ماعنى به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته فى البداية وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضى العامين إلى تجديدها أبى القشتاليون ، وطلبوا إليه الخضوع لقشتالة إذا شاء استمرار السلم ، وأنذروه باعلان الحرب ، فرفض وأخذ فى الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ

---

(١) هى بالافرنجية Priego

(٢) Dr. H. Ch. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 55

يوحنا الثانى حدثا تحت وصاية أمه وعمه فرديناند ، فما كادت تنتهى الهدنة حتى زحف النصارى على أرض غرناطة بقيادة فرديناند الوصى وضربوا الحصار حول مدينة أنتكيرة فى شمال غربى مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة ، وحاولت حامية أنتكيرة أن تحطم الحصار وأنزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والنصارى معركة كبيرة بحوار انتكيرة ، وبذل المسلمون لإنقاذ المدينة المحصورة جهودا رائعة ، ولكنهم هزموا أخيرا واضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم ، فدخلها النصارى (سنة ١٤١٢م) وأسبغ على فاتحها فرديناند من ذلك الحين لقب « صاحب أنتكيره » . وعاث النصارى بعد ذلك فى أراضى المسلمين . وأخيرا رأى السلطان يوسف أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة حقنا لدماء المسلمين ، واجتنابا لاستمرار هذه المعارك المخربة ، فارتضى بلاط قشتالة وعقد السلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية .

وفى عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المرينى إلى احتلال الثغر لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات النصارى ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبد الله فى الجند تخلصا منه ، ولكن ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة فى موقعة حاسمة وأسر زعيمهم عبد الله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ثم رده إلى المغرب وزوده بالمال وبعض الجند ليناهض أخاه ، فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه (١) .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتى قشتالة وغرناطة أخذت أواصر السلم تتوثق بينهما ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل ، ولم تشهد غرناطة من قبل عهدا كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمتين الخصيمتين . وكانت غرناطة يومئذ تغص بالفرسان والأشراف النصارى تجتذبهم خلال أميرها وبهاء بلاطها وفروستها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين والنصارى فى أعظم ساحات المدينة ، وتجرى طبقاً لأرفع رسوم الفروسية الإسلامية ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة فى تلك الأيام

---

(١) السلاوى فى الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ ؛ وراجع Scott; ibid; V. II. p. 500

المشهودة فى أروع الحلل وأبدع الزينات (١) . وكانت الأمة الأندلسية تتمتع يومئذ فى ظل ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر فى نفس الوقت فى ظل هذا السلم الخلب والترف الناعم ، إلى نوع من الانحلال الخطر الذى يعصف بمنعتها وأهباتها الدفاعية .

وتوفى السلطان يوسف فى سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) بعد حكم لم يطل سوى خمسة عشر عاما ، بيد أنها كانت صفحة زاهية فى تاريخ مملكة غرناطة .

— ٣ —

وتوالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدة من الأمراء الضعاف ، أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر . وكان أميرا صارما سيىء الخلال متعاليا على أهل دولته ، بعيدا عن الإتصال بشعبه ، لايكاد يبدو فى أية مناسبة عامة ، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته ، وكان هذا الوزير النابه وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته ورقة خلاله لتلطيف حدة السخط العام على مليكه . بيد أنه كان يحاول أمرا صعبا . ولابد لنا أن نقول كلمة فى التعريف ببنى سراج وهم الذين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة ، والذين غدت سيرتهم فيما بعد مستقى خصبا للقصص المغرق . فهم بنو سراج من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم حسبما يشير المقرى إلى مذحج وطىء من البطون العربية العريقة التى وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلى مرسية ، بيد أنهم لم يظهروا على مسرح الحوادث فى تاريخ الأندلس إلا فى مرحلته الأخيرة أعنى فى تاريخ غرناطة ، وقد كانوا بغرناطة من أعظم سادتها ، وكانوا أندادا للعرش والسلاطين (٢). ومنذ عهد السلطان الأيسر

---

(١) Condé; ibid. V. III. p. 309

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ حيث يشير إلى أصل بنى سراج اشارة عابرة . وقد ذكر البعض أن بنى سراج ينتمون إلى يوسف السراج وأن السراج هذا هو وزير السلطان الأيسر . ولكن إشارة المقرى الصريحة إلى الاسم والمنبت تنفى هذا التحريف فى الاسم . ويشغل بنو سراج فى الأساطير الإسبانية التى كتبت عقب سقوط غرناطة فراغا كبيرا ، مما يدل على ما كان لهم فى غرناطة من عظيم الشأن . وسنعود إلى ذكر هذه القصص والأساطير فيما بعد . راجع المستشرق سيبولد فى Encyc. de l'Islam- تحت كلمة Abencerrages وكذلك Lane-Poole: History of the Moors. p. 274

نرى بنى سراج فى طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون فى سير الحوادث بأعظم نصيب . وقد كان حكم السلطان الأيسر بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . وفى عهده ساءت الأحوال ، واشتد سخط الشعب ولم تجد محاولات الوزير ابن سراج لتهدئة الأمور . وقامت ثورات متعاقبة فقد فيها الأيسر عرشه ثم استرده غير مرة ، وكان بلاط قشتالة يشجع هذه الإنقلابات ويؤازرها ، وكان الزعماء الثائرون يتطلعون دائما إلى عون قشتالة ووحيها . وسنرى فيما يلى كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة فى تلك الفترة ، من أعظم العوامل فى انحلال المملكة الإسلامية والتعجيل بسقوطها .

ولم تمض أعوام قلائل من حكم الأيسر حتى عاد النصارى إلى غزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها فى سنة ٨٣٢هـ (١٤٢٨م) وتوغلوا فى أرجائها ، وعاثوا فى بسائط وادى آش ، فزادت الأمور فى غرناطة اضطرابا وازداد الشعب على الأيسر سخطا ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح فى رد العدو عن أرض الوطن ؛ وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بولاية أمير من أبناء عمومة الأيسر ، هو محمد الملقب « بالزغير » . وفر الأيسر فى أهله ونفر من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلا بحماية سلطانها أبى فارس الحفصى .

وجلس محمد الزغير [1] على عرش غرناطة . وكان أميرا بارع الخلال وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبة الشعب بفيض من الحفلات ومباريات الفروسة ، ولكنه لم يوفق إلى اخماد الدسائس والفتن المستمرة . وكان بنو سراج ألد خصومة وأشدهم مراسا ، فمال عليهم وطاردهم وعول على سحقهم ، واستئصال نفوذهم القوى المتغلغل فى أنحاء المملكة ؛ وغادر يوسف ابن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة والفرسان من أفراد أسرته تفاديا لانتقام الزغير وبطشه ، وسار أولا إلى ولايه مرسية ثم سار إلى إشبيليه ملتجئا إلى حماية ملك قشتالة يوحنا الثانى ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم . واتفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لرد السلطان الأيسر إلى العرش ، واستدعى الأيسر من

---

(١) زغير وهى النطق العامى لكلمة (صغير) Dozy : Supp. aux Dict. arabes, V. I. p. 595
وذكر كوندى أن الزغير Zaquir معناها السكير : Condé: ibid; V. III. p. 311

تونس فلبى الدعوة ، وزوده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان وهدايا ثمينة لملك قشتالة ، ونزل الأيسر فى عصبته فى ثغر ألمرية ، حيث استقبله الشعب بحفاوة ، ونودى به ملكا . ونمى الخبر إلى الزغير ، فأرسل بعض قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكن معظم جنده انضموا إلى الأيسر ؛ وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادى آش حيث يحتشد أنصاره ، ثم زحف على غرناطة فى قوة كبيرة ؛ ورأى محمد الزغير أنصاره ينفضون من حوله تباعا ، بيد أنه امتنع فى عصبته القليلة بقلعة الحمراء معتزما الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة واستقبل بحماسة وأعلن ملكا ، وحاصر الحمراء بشدة فسلمها إليه أنصار الزغير ؛ وقبض على الزغير وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله . وهكذا انتهت مغامرة الزغير على هذا النحو المؤسى بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠م)[1] .

ونظم السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف ابن سراج إلى الوزارة ، وأرسل إلى ملك قشتالة يوحنا الثانى فى تجديد الهدنة ، فاشترط لتجديدها أن يؤدى الأيسر ما انفقه بلاط قشتالة فى سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدى فوق ذلك جزية سنوية اعترافا بالطاعة ، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب . وما كادت تنتهى الفتنة الداخلية التى كانت يومئذ ناشبة فى قشتالة ، حتى أغار النصارى على أراضى المسلمين ، وقصدوا إلى رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم واستطاع أن يردهم فى البداية ، ولكن ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه فى قوات كبيرة ، وزحف على حصن اللوز وأرشدونه ، وعاث فى تلك المنطقة ، ثم عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السبى والغنائم .

وفى أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة متوجسا من سير الحوادث فيها . وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وغدا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب فى يد القدر ؛ وانقسمت المملكة الإسلامية شيعا وأحزابا متنافسة متخاصمة ، وألفى النصارى فرصتهم السانحة لإذكاء الفتنة وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرق ، وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول يوسف ابن الأحمر ، وهو أمير من أعقاب بيت الملك ، ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر .

---

(١) Condé: ibid; V. III. p. 311 - 315

وكان يوسف أميراً قوياً ، وافر الثراء والهيبة ، فأرسل إلى ملك قشتالة يطلب إليه العون ، ويتعهد بأن يحكم باسمه وفى طاعته ، فاستجاب إليه ملك قشتالة ، وأرسل جنده فغزت مرج غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قواته والتقى بالنصارى فى بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، ارتد الأيسر على أثرها منهزما إلى غرناطة . أما يوسف فقد استطاع بمؤازرة النصارى أن يستولى على عدة قواعد اعترفت بطاعته ، مثل رندة ولوشة وحصن اللوز وغيرها . وأعلن ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف ونودى به ملكا ، وتعهد يوسف أن يحكم باسم ملك قشتالة ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، وأن يحضر مجلس الكورتيس (مجلس النواب الاسبانى) باعتباره تابعا لعرش قشتالة . وسار يوسف بعد ذلك فى قواته إلى غرناطة فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج فهزم ابن سراج وقتل ، ودخلت جنود يوسف العاصمة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفض الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره وحمل أمواله وغادر غرناطة فى أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التى بقيت على طاعته ، ودخل يوسف بن الأحمر العاصمة ظافرا وتربع على العرش (١٤٣٦م) .

ولكن أمد حكمه لم يطل إذ كان شيخا مريضا ، فتوفى بعد ستة أشهر لم يفعل خلالها شيئا سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة . وعندئذ اتفقت الأحزاب كلها على رد السلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر بالسعى إلى عقد السلم مع ملك قشتالة ، فعقدت بين الفريقين هدنة قدرها سنة ، ولكن القشتاليين مالبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضى غرناطة الشرقية ، فردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (٨٤٠هـ — ١٤٣٧م) .

وفى العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين فى أحواز غرناطة ووادى آش وهزمهم غير مرة . ثم عاد النصارى فأغاروا على بسطة ووادى آش ، واحتلوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوة كبيرة من النصارى بقيادة حاكم لبله على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا النصارى وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (٨٤٣هـ — ١٤٣٩م) ونشبت فى الوقت نفسه بين

المسلمين والنصارى موقعة أخرى على مقربة من كازورلا ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكن قائدهم الفارس ابن سراج وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلا فى الموقعة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطى بظرفه وبارع فروسته .

وهكذا استمر الصراع بضعة أعوام سجالا بين المسلمين والنصارى . ولما رأى النصارى كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم ، لجأوا إلى السكينة حينا . ولكن حوادث غرناطة كانت عندئذ تنذر بتطورات جديدة مزعجة . ذلك أن السلطان الأيسر لم يحسن السيرة ، ولم ينجح فى اجتذاب شعبه ، وكان فريق من خصومه من السادة والفرسان يلوذ بحماية ملك قشتالة ، وعلى رأسهم الأمير سعد بن اسماعيل حفيد السلطان يوسف وابن أخى الأيسر ، وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الخوارج فى ألمرية يناصر ولد أخيه الآخر محمداً الأحنف(١) . وكان الأحنف قد نجح فى دخول غرناطة سرا مع نفر كبير من أنصاره وأخذ يعمل على اذكاء الفتنة . فلما آنس سنوح الفرصة ، ثار فى عصبته واستولى على الحمراء والحصون المجاورة لها ، وقبض على الأيسر وآله وزجهم إلى السجن ، ونادى بنفسه ملكا . ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور . وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوى من الزعماء والشعب ، ويتزعم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبد البر . وكان يقيم فى حصن مونتفريو فى شمال غربى غرناطة ، ويؤيد ولاية الأمير سعد بن اسماعيل المقيم فى بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار الأمير سعد من إشبيلية إلى غرناطة ومعه سرية من الفرسان النصارى أمده بها ملك قشتالة . ورد السلطان الأحنف من جانبه بأن غزا أراضى النصارى ، وهاجم قلعة بنى موريل وقلعة ابن سلامة ، وقتل من فيهما من النصارى (١٤٤٨م) . وسير فى الوقت نفسه جزأ من قواته لمقاتلة خصمه ابن اسماعيل ، وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراجون وقشتالة فأرسل إلى ملك أراجون يعرض محالفته ضد قشتالة ، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض النصارى من ناحية أراضى مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم

(١) يسمى كوندى محمداً الأحنف بالسلطان ابن عثمان ؛ وربما كان عثمان اسم أبيه (Condé: ibid; p. 328.)

هزيمة شديدة (١٤٥٠م) . ثم عادت قواته تكرر الإغارة والعيث فى أرض النصارى وتشغل قواتهم . وكان ابن اسماعيل يقيم أثناء ذلك فى حصن مونتفريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة ، وغزوات النصارى من جهة أخرى بقوى غرناطة . وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه ، يثير غضب الشعب بطغيانه وقسوته وعنفه ، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لإسقاطه لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد . وعاد ملك قشتالة بعد أن سوى خلافه مع أراجون إلى التدخل فى شئون غرناطة ، فزود ابن اسماعيل ببعض قواته ؛ وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة معركة شديدة انتهت بهزيمة الأحنف وفراره ؛ ودخل ابن اسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك فى سنة ٨٥٤هـ (١٤٥٤م) (١) .

وكان السلطان ابن اسماعيل أميرا عاقلا حازما عادلا ، محبا للاصلاح والأعمال الإنشائية ، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن ، وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور . وكان فارسا بارعا يشترك بنفسه أحيانا فى مباريات الفروسة . ولأول عهده أرسل إلى ملك قشتالة يوحنا الثانى يؤكد طاعته ، وساد السلم لفترة قصيرة بين المسلمين والنصارى . ولكن يوحنا الثانى توفى بعد أشهر قلائل ، وخلفه ولده هنرى الرابع . وأبى ابن اسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة الجديد ، محاولا بذلك أن يكتسب الشعب إلى جانبه ، وأن يوطد مركزه ؛ وسير بعض قواته فى نفس الوقت فأغارت على الأراضى القشتالية ، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته ، واعتزم أن يتابع الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة ، فسار إلى أراضى غرناطة فى جيش ضخم وعاث فيها ، وانتشر المروج والضياع ، وقتل وسبى من أهلها جموعاً كبيرة ، ولقيه المسلمون فى قوات صغيرة أنزلت بجيشه خسائر كبيرة . وعاد القشتاليون فى العام التالى إلى عيثهم فى أراضى المسلمين ، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيان وأوقعوا هنالك بالنصارى ، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالا بين الفريقين . وكان النصارى قد استولوا فى تلك الفترة

---

(١) Condé: ibid; V. III. p. 328 - 334

المضطربة من حياة المملكة الإسلامية ، على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختياراً بتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح . وكانت أعظم ضربة أصابت مملكة غرناطة فى عهد السلطان ابن اسماعيل ، سقوط ثغر جبل طارق فى يد النصارى . ففى سنة ١٤٦٢م سارت اليه قوة من النصارى بقيادة الدوق مدينا سيدونيا واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع فى يد النصارى أول خطوة ناجعة فى سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب ، والحول دون قدوم الأمداد اليها من وراء البحر .

على أن خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر ، كان قد خبا منذ بعيد . وأخذت دولة بنى مرين القوية تجوز مرحلة الإنحلال والسقوط ، وكان آخر ملوكهم السلطان عبد الحق ، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المرينى فى سنة ٨٢٣ هـ (١٤١٥ م) . وفى عصره ساد الاضطراب والتفكك فى أنحاء المملكة ، واستبد وزيره يحيى بن يحيى الوطاسى بالدولة . وكان بنو وطاس ينتمون إلى بطن من بطون بنى مرين ، وينافسونهم فى طلب الرياسة والملك ؛ فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبدالحق ، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم ، وفى مقدمتهم وزيره يحيى ، ونجا البعض منهم وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وأسلم عبد الحق زمام دولته إلى اليهود فبغوا وعاثوا فى الدولة ؛ وغضب الشعب على مليكه ، واضطرمت الثورة ، وعزل عبد الحق وقتل (٨٦٩ هـ — ١٤٦٤ م) ، وانتهت بمصرعه دولة بنى مرين بعد أن عاشت زهاء مائتى عام ؛ واستولى على تراث بنى مرين وملكهم ، بنو وطاس خصومهم القدماء ، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولى على فاس فى سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) [1] وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة ؛ بيد أنها لم تكن من المنعة والقوة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس ، فى سبيل الجهاد والنجدة ، أسوة بما كانت تعمله دولة بنى مرين القوية الشامخة .

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت فريدة فى مواجهة عدوها القوى دون حليف ولا ناصر . ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال ، بدأ من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه ، وتأدية الجزية اغتناماً

(١) راجع الاستقصاء ج ٢ ص١٤٨ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٦٠ .

للمهادنة والسلم . وكانت مملكة غرناطة تجوز فى هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الإضطراب الداخلى ، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر ، اضطرام المنافسة بين العرش وبين الأسر النبيلة القوية ، مثل بنى سراج وبنى أضحى وبنى الثغرى وغيرهم(١) ، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء فى البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت فى سنة ١٤٦٢ م فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن اسماعيل أن يقضى على نفوذ بنى سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها . وهكذا كانت نذر التفكك تعمل عملها المشئوم(٢). ومع أن غرناطة تمتعت بمزايا الهدنة الخادعة التى عقدتها مع قشتالة حتى وفاة السلطان ابن اسماعيل فى سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦ م) فقد كان من الواضح أن المملكة الإسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الإنحلال الأخير .

* * *

وفى ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح عاهل الترك العثمانيين على قسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) وانهار هذا الصرح المنيع ، الذى كان يحمى أوربا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام ، وانساب تيار الفتح العثمانى إلى جنوب شرقى أوربا ، يكتسح فى طريقه كل مقاومة ، وروعت أوربا النصرانية لهذا

---

(١) بنو أضحى أو بنو ضحى من سادة غرناطة ، وقد ذكرهم ابن الخطيب فى الاحاطة مع من ذكر من الأسر الغرناطية ، ولكنا لم نعثر فى الرواية الاسلامية على أية اشارة تلقى ضوءاً على أصل بنى الثغرى وهم الذين يسمون فى الرواية النصرانية (Zegris) . ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس مترجم نفح الطيب إن التسمية الفرنجية هى تحريف لكلمة الثغريين وهم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) الى غرناطة بعد سقوطه فى يد النصارى (Mohamedan Dynasties in Spain; V. II. p. 541 & Alhambra; Intr. p. 15 Note) وهو تعليل حسن ويؤيده نطق حرف الـ Z فى الكلمة الافرنجية فهو ينطق فى الإسبانية ثاء . وقد كانت كلمة الثغرى فيما يبدو صفة أو لقبا لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى (أراجون) الى مختلف انحاء الأندلس ولاسيما منذ القرن السادس الهجرى . ولهذا نجد عددا من الزعماء يحمل هذا اللقب (راجع الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢١٧ و ٢١٨) . على أن هـذا التعليل لا يكشف لنا لقب الأسرة الحقيقى وانما ينصرف الى الصفة والشهرة . وهنالك ما يدل على أن آل الثغرى كانوا من البربر ومن قبيلة غمارة ؛ وقد كانت لهم كما سنرى مواقف مشهودة فى حرب غرناطة الأخيرة .

(٢) يرى المستشرق جاينجوس أن منافسات بنى سراج وبنى الثغرى ، كانت من أهم أسباب التعجيل بسقوط غرناطة Gayangos: ibid; V. I. p. 315

الخطر الجديد الذى يهدد حريتها وسلامها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . وتردد هذا الصدى فى اسبانيا النصرانية ، حيث كانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة فى اسبانيا ، وقد تغدو فى الغرب نواة لهذا الخطر الإسلامى الداهم ، الذى بدت طلائعه فى الشرق على يد الغزاة الترك ، ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تجيش اسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة ، وأن يذكى هذا الخطر الجديد ، اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تجوزه مملكة غرناطة يومئذ من فتن داخلية ، وما كان يفت فى قواها من عوامل الإنحلال السياسى والاجتماعى ، فقد كانت تعتبر دائماً فى نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره . وكان أشد ما تخشاه اسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الإسلامى تنساب من وراء البحر ، كما حدث فى الحقبة الأخيرة غير مره . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدره اسبانيا النصرانية . وكانت مملكة قشتالة فى تلك الآونة بالذات تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد اسبانيا النصرانية فى مملكة قوية موحدة . وقد كانت خلال الأحداث التى توالت عليها فى تلك الفترة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية المأثورة . فلما تحققت الوحدة ، واستقرت الأحوال واجتمعت الموارد ، أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الإسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القوية اسبانيا النصرانية فى الأفق قوية سانحة .

الفصل التاسع

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون

الفونسو العاشر ملك قشتالة . مشاريعه نحو مملكة غرناطة . الحرب الأهلية فى قشتالة . ولاية سانشو المتوحش . الخلاف بينه وبين النبلاء . عقد الهدنة بين غرناطة وقشتالة . ولاية فرديناند الرابع ووصاية أمه . اضطراب الأحوال فى قشتالة . توطد مركز فرديناند . غزو القشتاليين لأراضى الأندلس . استيلاؤهم على جبل طارق . ولاية الفونسو الحادى عشر والوصاية عليه . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل زعمائهم . طغيان الفونسو وعبثه . عبور سلطان المغرب الى الأندلس . هزيمة المسلمين . غزو القشتاليين للجزيرة الخضراء . حصار جبل طارق وفشل النصارى . ولاية بيدرو القاسى . طغيانه وعنفه . الحرب الأهلية فى قشتالة . انتصار الكونت هنرى وارتقاؤه العرش . ازدهار قشتالة فى عهده . ولاية يوحنا الأول . الخلاف بينه وبين البرتغاليين . مصرعه وولاية ولده هنرى الثالث . توطد السلام والأمن فى عهده . ولاية يوحنا الثانى والوصاية عليه . ضعفه ولهوه . فرديناند الوصى يدعى لولاية عرش اراجون . الصراع بين يوحنا والأشراف . التهادن بين قشتالة وغرناطة . ولاية هنرى الرابع . اضطراب الأحوال فى عصره . استيلاء القشتاليين على جبل طارق . بيدرو الثالث ملك اراجون . النزاع حول عرش نابل . افتتاحه لصقلية . الفونسو الثالث . ضغط النبلاء عليه . جايم الثانى . الاستقرار فى عهده . الفونسو الرابع . طغيان النبلاء وامتيازاتهم . بيدرو الرابع . الحرب الأهلية بين العرش والنبلاء . استيلاء بيدرو على الجزائر الشرقية . استرداده لصقلية . ولاية يوحنا الأول . ولاية مارتن الأول . الصداقة بين اراجون وغرناطة . وفاة مارتن وجلوس فرديناند صاحب انتكيره على العرش . حكمه المطلق . ولده الفونسو الخامس . افتتاحه لمملكة نابل . أخوه يوحنا يحكم اراجون . ازدهار مملكة نابل . ولاية يوحنا الثانى لعرش اراجون . الحرب الأهلية فى اراجون . الحرب بين اراجون وفرنسا . وفاته وولاية ولده فرديناند . عود الى تاريخ قشتالة . النزاع حول العرش بعد وفاة هنرى الرابع . أخته الأميرة ايزابيلا . قصة زواجها من فرديناند الأرجونى . معارضة أخيها هنرى . موافقتها على

هذا الزواج . شروط الزواج وعقده . اعلان ولاية ايزابيلا عقب وفاة أخيها . خوانا ابنة الملك هنرى . مشروع زواجها من ملك البرتغال . غزو ملك البرتغال لقشتالة . ارتداده وفشل مشروعه . ارتقاء فرديناند عرش اراجون . اتحاد مملكتى قشتالة واراجون . اسبانيا النصرانية الموحدة . فرديناند الكاثوليكى وصفاته وخلاله . ايزابيلا الكاثوليكية وصفاتها وخلالها . انحلال مملكة غرناطة . عزم فرديناند وايزابيلا على القضاء عليها .

١ — قشتالة

لما توفى فرديناند الثالث ملك قشتالة فى سنة ١٢٥٢م ، خلفه فى الملك ولده الفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio لاشتغاله بالعلوم ولاسيما الفلك حسبما أشرنا من قبل . وشغل الفونسو بالشئون والإصلاحات الداخلية ولاسيما الإصلاحات التشريعية . وكان المجتمع الإسبانى فى هذا العصر يشعر بحاجة شديدة إلى تشريعات تتفق مع تطوراته ، وتقضى على ما كان يعتوره من شذوذ فى تكوينه ، وتحد من طغيان الأشراف والسادة ، وتلطف من حدة التنافس والبغضاء بين الطوائف . وقد رأينا أن جايم الفاتح ملك أراجون كان فى الوقت نفسه يضطلع فى مملكته بمثل هذا الدور الإصلاحى الهام . وكان الفونسو تحدوه أطماع امبراطورية ضخمة ، إذ كان يطمح إلى تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وذلك بسبب انحداره من أم المانية من آل هوهنشتاوفن هى ابنة الإمبراطور فيليب ، وقد انفق فى سبيل هذا المشروع الخيالى أموالا طائلة ، واضطر لحاجته إلى المال أن يصدر نقدا زائفا ، وأن يتخذ اجراءات ، كان لها أسوء الأثر فى سير الأحوال الإقتصادية .

وكان الفونسو بالرغم من اشتغاله بالشئون الداخلية ، يجرى على خطة أسلافه فى متابعة غزو الأراضى الإسلامية . وفى أوائل عهده استطاع أن ينتزع مدينة قادس من سكانها المسلمين بمعاونة حليفه ابن الأحمر صاحب غرناطة . بيد أن أمير غرناطة محمداً الفقيه ، لما شعر بعد ذلك بما يدبره ملك قستالة من خطط للقضاء على المملكة الإسلامية ، عبر البحر إلى المغرب يطلب الغوث والعون ، من السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور . وقد رأينا فيما تقدم كيف استجاب المنصور إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر إلى اسبانيا غير مرة واثخن فى جيوش قشتالة .

وفى أواخر عهد الفونسو العاشر ساءت الأحوال فى قشتالة ، وثار الأشراف

على العرش ، لمحاولته أن يقضى على سلطانهم وامتيازاتهم . ثم خرج على الفونسو ولده سانشو مناديا بحقه فى العرش وكونه أولى من ولد أخيه المتوفى المرشح لولاية العهد . واضطرمت فى قشتالة حرب أهلية خسر فيها الفونسو عرشه ، والتجأ إلى السلطان أبى يوسف فأمده بالمال والجند حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . واستمرت الحرب الأهلية بين الفونسو وولده سانشو ، حتى توفى الفونسو فى سنة ١٢٨٤م فى إشبيلية ، منبوذا مهزوما ، وبذلك انتهت الحرب الأهلية فى قشتالة .

واستمر ولده سانشو الملقب بالمتوحش El Bravo على عرش قشتالة مدى حين بلا منازع ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع النبلاء الذين آزروه ضد أبيه من قبل ومع اخوته الأصاغر ، وكذلك مع أبناء أخيه الأكبر فرناندو الذي توفى قبل وفاة أبيه ، وثارت حول عرش قشتالة من جديد منازعات واضطرابات لانهاية لها . وعمد سانشو إلى الدس والغيلة للتخلص من خصومه ، وأبدى فى مطاردتهم قسوة متناهية ، ومن ثم كان تلقيبه « بالمتوحش » . وفى تلك الفترة التى اضطربت فيها شئون قشتالة ، آثر سانشو أن يستجيب إلى عقد السلم مع مملكة غرناطة ، وكان ابن الأحمر من جانبه يتوق إلى عقد مثل هذه الهدنة مع قشتالة ، لما كان يساوره من جزع من جراء تدخل سلطان المغرب أبى يوسف المنصور فى شئون الأندلس ، بصورة خشى معها على سلطانه حسبما فصلنا فى موضعه ، وعلى ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السكينة والسلام .

ولما توفى سانشو فى سنة ١٢٩٦م ، خلفه ولده فرديناند (الرابع) طفلا فى السادسة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه ماريا دى مولينا . وبالرغم مما أبدته أمه من الشجاعة فى الذود عن العرش وعن الملك الطفل ، ومن براعة فى تصريف الشئون ، فقد كان عهده عهد اضطراب وفوضى ؛ وعاد النبلاء والمتنافسون فى طلب العرش إلى تدبير الثورات المتعاقبة ، واضطر الملك الطفل وأمه إلى الفرار من إشبيلية ، والالتجاء إلى حماية أهل آبلة (آقيلا) الذين آزروه واستقبلوه بترحاب وحماسة . ولما بلغ فرديناند أشده ، استطاع أن يعود إلى عرشه بمؤازرة أصدقائه وأنصاره ، ولكنه أبدى قصوراً وعجزاً فى تسيير الشئون ، كما أبدى عقوقاً ونكراناً لأمه ، التى كفلته ورعته فى طفولته . وفى عهد فرديناند ساءت العلائق

بين قشتالة ومملكة غرناطة ، وعاد النصارى إلى غزو أراضى المسلمين ، وكان من أعظم الحوادث فى هذا العهد ، استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق ، سنة ٧٠٩هـ (١٣١٠ م) . وفى سنة ١٣١٢ عاد القشتاليون بقيادة فرديناند إلى غزو الأندلس ، وزحفوا على مدينة جيان ، وضربوا حولها الحصار . ولكن فرديناند توفى فجأة وهو فى خيمته أمام أبواب المدينة المحصورة ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٣١٢م .

فخلفه على العرش ولده الطفل الفونسو (الحادى عشر) ، ولما يبلغ الحول من عمره ، وتولى الوصاية عليه الدون بيدرو والدون خوان وهما زعيما النبلاء . وبالرغم مما كان يسود قشتالة يومئذ من ضروب الإضطراب والفوضى ، فقد اعتزم رهط الأمراء والنبلاء المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وعاث الجند القشتاليون فى بسائط غرناطة ، واستولوا على عدة من الحصون ، وهزموا المسلمين فى موقعة شديدة (١٣١٧م) . وكان ذلك فى بداية عصر السلطان أبى الوليد اسماعيل . وبعد ذلك بعامين زحف الجند القشتاليون ، بقيادة الدون بيدرو والدون خوان الوصيين وعدد كبير من الأمراء ، على العاصمة الأندلسية ذاتها ، والتقى المسلمون والنصارى على مقربة من غرناطة ، وكانت موقعة هائلة كتب فيها النصر للمسلمين ، وقتل الدون بيدرو والدون خوان ومعظم الأمراء القشتاليين (١٣١٩م) .

وانتهز المسلمون هذه الفرصة فقاموا بعدة غزوات ناجحة فى أراضى قشتالة ، واستولوا على بعض القواعد والحصون حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وفى خلال ذلك تفاقمت الأمور فى قشتالة واشتد النزاع بين النبلاء ، واستمرت هذه الحال طوال عهد الوصاية .

ولما بلغ الملك الطفل أشده ، وتولى أمور الملك بنفسه ، أخذت تتكشف صفاته المثيرة شيئا فشيئا . وبالرغم مما أبداه من مقدرة فى ضبط المملكة وتسيير الشئون ، وما قام به من الإصلاحات الإدارية والقضائية ، لتوطيد النظم التى يقوم عليها المجتمع القشتالى ، فقد كان يلجأ إلى أشد أساليب العنف والقمع ، وكان القتل وسيلته المثلى لحماية العرش وصون الدولة ، وقد زهق على يديه كثير من الأمراء والنبلاء والزعماء ، دون اجراءات ودون محاكمة ، حتى لقب من أجل ذلك

« بالمنتقم » . وكان البلاط القشتالى فى عهده مرتعا للفجور والإثم . وكانت الملكة الشرعية الأميرة ماريا البرتغالية تعيش منبوذة فى عزلة مطبقة ، وتسيطر على القصر والدولة خليلة الملك اليونورا دى كزمان ، وقد رزق منها الفونسو بعدة أبناء غير شرعيين . وهكذا كانت قشتالة تجوز يومئذ عهدا من الإرهاب ، والانحلال السياسى والاجتماعى .

ومع ذلك فقد كان الفونسو الحادى عشر ملكا قوى البأس والعزم . وكان يضطرم نحو المملكة الإسلامية بمشاريع خطرة . وكانت غرناطة شعورا منها بالخطر الذى يحدق بها ، قد استغاثت بجارتها القوية وراء البحر مرة أخرى ، وبعث السلطان أبو الحسن المرينى جيوشه لنجدة الأندلس ، واجتمعت جيوش الممالك النصرانية ، قشتالة وأراجون للقاء الجيوش المغربية وهزمتها فى موقعة دموية فى سنة ١٣٣٩م ؛ فاعتزم السلطان أبو الحسن أن يثأر لنفسه من تلك الهزيمة وجاز البحر بنفسه إلى الأندلس فى أسطول وجيش عظيمين ، واجتمعت الجيوش النصرانية بقيادة الفونسو الحادى عشر ، والتقت بجيوش الأندلس والمغرب على ضفاف نهر سالادو فى الجزيرة الخضراء ، ونشبت بين الفريقين موقعة حاسمة هزم فيها المسلمون شر هزيمة ، وسقط معسكر سلطان المغرب ومخيمه فى يد النصارى حسبما فصلنا فى موضعه ، وكان ذلك فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠م (جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ) ، واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء .

واستمرت غزوات النصارى لأراضى غرناطة بضعة أعوام أخرى . وفى سنة ١٣٤٩م زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء . وكان ثغر جبل طارق الذى استولى عليه النصارى مدى حين قد عاد إلى المسلمين ، واعتزم ملك قشتالة أن يحاول استرداده ، فضرب حوله الحصار الصارم ، واستمر الحصار زهاء عام والمسلمون داخل الصخرة صامدين ، وملك غرناطة يرابط بجيشه من وراء النصارى . ثم فشا الوباء فى جيش النصارى ، وهلك منه عدد جم ، وكان ملك قشتالة فى مقدمة الضحايا ؛ فاضطر النصارى إلى رفع الحصار ، وأنقذت جبل طارق بما يشبه المعجزة (سنة ١٣٥٠ م) .

وهكذا توفى الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى إبان قوته ومجده ، ولما

يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره ؛ فخلفه ولده بيدرو الثانى الملقب بالقاسى الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بدون بطره » . وبيدرو شهير فى الرواية الإسلامية أولا لأنه هو الملك الذى أُوفد إليه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون سفيرا من قبل ملك غرناطة ، ووصف لنا فى التعريف سفارته لديه وإقامته فى قشتالة (١) . وثانيا لأنه معاصر للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة ، وقد تناول أخباره فى تاريخه بتفصيل ووضوح .

ولجأ بيدرو الثانى إلى نفس الأساليب الدموية التى لجأ إليها أبوه فى توطيد سلطانه ، فأسرف فى قتل خصومه ، وبسط على قشتالة حكم إرهاب مروع ، وقيل إنه لجأ إلى قتل زوجه الشرعية بلانش دى بوربون بالسم ليتزوج من خليلته ، وعهد بادارة حكومته إلى رهط من اليهود ارتيابا منه فى أبناء وطنه ، وأنشأ له حرساً من المدجنين . ونشب الخلاف بينه وبين اخوته غير الشرعيين أبناء الينورا دى كزمان ، ولاسيما كبيرهم الكونت هنرى دى تراستمارا . وانحاز الأشراف إليهم ، واضطرمت قشتالة مدى أعوام بثورات داخلية ، ثم استحالت إلى حرب أهلية ضروس ، واستطاع الكونت هنرى أن يحصل على معاونة ملك فرنسا ، وأن ينتزع لنفسه عرش قشتالة ، وفر بيدرو واستغاث بالأمير ادوارد ولى عهد انجلترا المعروف بالأمير الأسود ، فأمده بجنده واستطاع أن يسترد عرشه مدى حين . ولكن أخاه الكونت هنرى عاد إلى محاربته فهزم وقتل فى موقعة مونتيل فى سنة ١٣٦٨م . وقد عرضنا إلى هذه الحوادث بالتفصيل فى حديثنا عن عصر السلطان محمد الغنى بالله . وقد كانت تربطه ببيدرو الثانى معاهدة صداقة وتحالف ، وكانت غرناطة إلى جانبه فى محنته ، وكان لهذه الحوادث صدى خاص فى الرواية الإسلامية عرض إليه ابن الخطيب فى تاريخه على نحو ما فصلنا .

وعلى أثر موقعة مونتيل استقر الكونت هنرى دى تراستمارا مكان أخيه على العرش (١٣٦٨م) ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك قشتالة . وفى عهد استتب الهدوء والنظام فى قشتالة ، وأقبل الأشراف على تأييده ، وكان للمدن التى آزرته فى جهوده لنيل العرش امتيازات خاصة ؛ وكذلك ازدهر البرلمان القشتالى (الكورتيس)

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٧ ص٣٠٦ ومابعدها .

واشتد ساعده ، ولكنه لم يوفق إلى الحد من طغيان العرش . وأبدى الكونت هنرى فى تسيير الشئون الداخلية مقدرة ، وأصاب نجاحا يذكر ، واستطاع فى ميدان الشئون الخارجية أن يرغم البرتغال على عقد الصلح ، وأن يهزم حملة بحرية فى مياه لاروشل. وكان حكمه على العموم فترة رخاء وأمن . وفى عهده انتهزت مملكة غرناطة فرصة اشتغال قشتالة بشئونها الداخلية فنظمت قواها ، وأغارت غير مرة على أراضى قشتالة فى غزوات ناجحة ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

ولما توفى الكونت هنرى فى سنة ١٣٧٩م ، خلفه على العرش ولده يوحنا (خوان) الأول . وكان الأمير چون أوف جونت ولد ادوارد الثالث ملك انجلترا قد تزوج كبرى بنات بيدرو الثانى ، وأخذ يطالب باسمها بعرش قشتالة ، وكادت تضطرم من أجل ذلك حرب أهلية جديدة ، ولكن يوحنا الأول استطاع أن يجتنب هذا الخطر بالتفاهم مع الأمير چون ، والاتفاق معه على أن يقترن ولده بالأميرة كونستانس كبرى بنات الأمير الإنجليزى ، وتم بذلك الزواج اتحاد فرعى الفونسو الحادى عشر ، وزوال خطر الحرب الأهلية المترتب على خصومتهما وتنافسهما حول العرش ؛ وحاول يوحنا الأول من جهة أخرى أن يطالب بعرش البرتغال عقب وفاة ملكها فرديناند سنة ١٣٨٣م باسم زوجه الأميرة بياتريس ، وهى الإبنة الوحيدة للملك المتوفى ، وثارت من جراء ذلك بين قشتالة والبرتغال حرب هزم فيها القشتاليون فى موقعة « الخبروتا » فى سنة ١٣٨٥م ، واضطر ملك قشتالة أن ينزل عن دعواه .

وتوفى يوحنا الأول قتيلا على أثر سقوطه عن جواده (اكتوبر سنة ١٣٩٠م) فخلفه على عرش قشتالة ولده هنرى الثالث حدثا . وكان سقيما عليلا ، ولم يطل أمد حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل . بيد أنه استطاع فى حكمه القصير أن يوطد النظام والأمن داخل مملكته ، وأن يقضى على شغب الأشراف ، وأن يسترد منهم كل الإقطاعات التى انتزعوها من العرش إبان طفولته . وفى عهده نشبت الحرب حينا بين المسلمين والنصارى ، وانتهت بعقد الهدنة بين الفريقين ، ثم توفى شابا فى أواخر سنة ١٤٠٦م .

فخلفه ولده يوحنا الثانى طفلا فى نحو الثانية من عمره ، ووضع تحت وصاية

أمه الملكة كونستانس الإنجليزية ، وعمه الأمير فرديناند الذى يعرف بفرديناند صاحب أنتكيرة ، نظرا لاستيلائه على هذه القاعدة من المسلمين فى سنة ١٤١٢م .

وطال حكم يوحنا الثانى زهاء نصف قرن ، وكان أميرا ضعيف الرأى والعزم سيء الخلال ، يعشق اللهو وينفق أوقاته فى حفلات الصيد والفروسة وقرض الشعر ، وكان عمه الوصى فرديناند فى الأعوام الأولى من طفولته ، يقبض على زمام الأمور بحزم وبصيرة . بيد أنه دعى منذ سنة ١٤١٢م إلى تبوىء عرش أراجون بقرار من الكورتيس ، فترك قشتالة لمصيرها . وما كاد يوحنا الثانى يبلغ أشده ، حتى بدأ النضال بينه وبين الأشراف من أجل السلطة وفرض الضرائب ، وشغلت قشتالة مدى حين بأمر هذا النضال . وفوض الملك شئون الدولة إلى وزيره وصفيه الفارو دى لونا ، فاستأثر بكل سلطة ، واستطاع أن يوطد نفوذ العرش ، وأن يحقق النظام والأمن . فلما اقترن يوحنا بزوجه الثانية إيزابيلا البرتغالية ، عملت على تحريره من نفوذ وزيره القوى ، وما زالت به حتى أسقطه وأقصاه . ويقال إن هذا التصرف الغادر نغص عليه حياته فى أعوامه الأخيرة . وتوفى يوحنا الثانى فى يوليه سنة ١٤٥٤م فى بلد الوليد ، وقد رزق من زواجه الثانى بابنته إيزابيلا وهى التى تبوأت العرش فيما بعد ، وعرفت بايزابيلا الكاثوليكية ، وكان لها أعظم شأن فى تاريخ اسبانيا النصرانية .

وفى معظم عصره ساد نوع من السلام والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وكانت حفلات الفروسية الأندلسية الشهيرة تجمع بين الأشراف والسادة من الفريقين ، فى جو من التعاطف والمودة . ولكن غرناطة مالبثت أن شغلت بثوراتها الداخلية التى تعاقبت حول العرش فى عصر السلطان الأيسر وخلفائه . وكان بلاط قشتالة يلعب عندئذ دوره المأثور ، فى إذكاء عوامل الخلاف بين المتنافسين من أمراء غرناطة ، وتغليب البعض على البعض الآخر ، والتمهيد بذلك لإضعاف مملكة غرناطة والقضاء عليها .

وخلف يوحنا الثانى ولده هنرى الرابع ، وكان كأبيه أميرا ضعيفا منحل الخلال ، حتى انه لقب « بالعاجز » . وكان عصره عصر ركود وفوضى ، ومع ذلك فان قشتالة لم تقعد فى عهده عن المضى فى غزو الأراضى الإسلامية وإرهاق

مملكة غرناطة التى اضطربت شئونها وسادتها الخلافات الداخلية . واضطر ملك غرناطة السلطان ابن اسماعيل أن يتعهد بتأدية الجزية لقشتالة . وكان من أعظم الحوادث فى عصر هنرى الرابع استيلاء القشتاليين نهائيا على ثغر جبل طارق (١٤٦٢م) حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه . وتوفى الملك هنرى فى سنة ١٤٧٤م . وعلى أثر وفاته عارض النبلاء فى جلوس ابنته الوحيدة خوانا على العرش لما يحيط بنسبتها إليه من الريب . وهنا تقدمت أخته الأميرة إيزابيلا مطالبة بعرش قشتالة ، وكانت قد تزوجت فى سنة ١٤٦٩م من ابن عمها الأمير فرديناند الأرجونى ، وذلك بالرغم من معارضة أخيها الملك هنرى ، وكان لهذا الزواج أثر بعيد المدى فى سير التاريخ الإسبانى حسبما نفصل بعد .

٢ — أراجون

لما توفى جايم الأول أو جايم الفاتح ملك أراجون فى سنة ١٢٧٤م ، خلفه على العرش ولده بيدرو الثالث . وتبدأ منذ عهد هذا الملك صفحة جديدة فى تاريخ أراجون ، حيث يمتد سلطان العرش الأرجونى واسبانيا النصرانية فيما وراء البحر ، إلى صقلية وجنوبى ايطاليا (مملكة نابل) . وذلك أن بيدرو الثالث تزوج الأميرة كونستانس ابنة مانفرد دوق بنفونتوم وصاحب مملكة نابل وصقلية باعتباره سليل بيت هوهنشتاوفن الامبراطورى . وكان البابا يود التخلص من سلطان أولئك الأمراء الالمان ، فدعا شارل دانجو ولد ملك فرنسا إلى اعتلاء عرش نابل ، فاستجاب شارل إلى الدعوة وغزا نابل وقتل صاحبها مانفرد . وهنا تقدم بيدرو الثالث مطالبا بعرش نابل باسم زوجه ، ونشب بين الحزب الأرجونى وبين حزب شارل دانجو نزاع طويل الأمد . وفى النهاية استطاع بيدرو أن يغزو صقلية وأن ينتزعها من يد الفرنسيين ، واسبغ عليه هذا الفتح لقب « الأكبر » . ولما حاول الفرنسيون غزو قطلونيه تأييدا لشارل دانجو ردهم بيدرو وأخفقت المحاولة . وكان افتتاح صقلية أول خطوة فى بسط السيادة الإسبانية على جنوبى ايطاليا فيما بعد . ولما توفى بيدرو الثالث فى سنة ١٢٨٥م ، كانت سيادة أراجون تمتد فضلا عن صقلية إلى بعض أنحاء بروڤانس فى جنوبى فرنسا .

وخلفه على العرش ولده الفونسو الثالث ، وكان ضعيفا سيىء الخلال ، ولم يطل

أمد حكمه سوى بضعة أعوام . وفى عهده اشتدت وطأة النبلاء وكثرت مطالبهم ، وعجز الفونسو عن مقاومتهم ، وكان تخاذل العرش أمام طغيان الأشراف على هذا النحو ، سببا فى اضطراب الأمور فى مملكة أراجون .

وتوفى الفونسو الثالث سنة ١٢٩١م دون عقب لأنه لم يتزوج ؛ فخلفه على عرش أراجون أخوه الأصغر چايم الثانى ، وكان يتولى عرش صقلية منذ وفاة أبيه فى سنة ١٢٨٥ م حتى وفاة أخيه الأكبر . ورأى چايم أن يوفق بين أراجون وبين مملكة نابل ، فتزوج من بلانكا ابنة شارل دانجو وساد السلم حينا بين أراجون وفرنسا . واستطال حكم چايم حتى سنة ١٣٢٧م ، وكان عهده عهد اصلاح واستقرار . ثم خلفه فى الملك ولده الفونسو الرابع ، فحكم زهاء تسعة أعوام ، وكان أميرا ضعيفا . وفى عهده زاد طغيان النبلاء ولاسيما فى أراجون وبلنسية ، واشتد ارهاقهم للعرش حتى انتهوا بارغام الفونسو على اصدار المرسوم المعروف بمرسوم الإتحاد ، وفيه يعترف العرش لهم بأنه لاتجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس أو المال إلا بحكم القانون ، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر الذى يصدر أحكامه مستقلا عن مصادقة العرش ، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم حيثما شعروا بما يهددهم ؛ وكان فى صدور هذا المرسوم افتئات لم يسبق له مثيل على سلطان العرش .

وكان بيدرو الرابع الذى خلف أباه الفونسو على العرش سنة ١٣٣٦ م . أميرا قويا وافر العزم . وكان يتوق إلى كبح جماح أولئك النبلاء الذين طال طغيانهم وإلغاء ذلك المرسوم الذى أرغم أبوه على اصداره . ولكن النبلاء تمسكوا بموقفهم ، وتأهبوا للدفاع عن امتيازاتهم ، واضطرمت أراجون بحرب أهلية بين العرش والنبلاء انتهت بفوز بيدرو الرابع على النبلاء الخوارج فى موقعة أبيلا سنة ١٣٤٨م . وأمعن بيدرو بعد ذلك فى مطاردة خصومه وقتلهم ، وأرغم النبلاء على التنازل عن مرسوم الإتحاد ، وقام بنفسه بتمزيقه امام مجلس النواب فى سرقسطة ، وبلغ من تلهفه على تمزيقه أن جرح يده بخنجره ، وصاح عندئذ بان الدم الملكى حقيق بان يجرى فى سبيل إبطال مثل هذه الوثيقة ، وعرف من جراء ذلك « بصاحب الخنجر » . على أن بيدرو كان حكيما فى ظفره ، فقد ترك للنبلاء الحق فى أن يحاكموا بمقتضى القانون ، وأن تكفل حمايتهم من الأحكام التعسفية ، وأكد احترامه لاستقلال القضاء ، وترك

للمدن حتى الإعراب عن رأيها . وفى العام التالى (١٣٤٩م) استطاع بيدرو الرابع أن ينتزع الجزائر الشرقية (البليار) من ابن عمه چايم الثالث ، بعد أن هزم وقتل فى موقعة دموية ، وأعيدت الجزائر الشرقية إلى مملكة أراجون مرة أخرى ، وكان چايم الفاتح قد تركها بمقتضى وصيته لچايم أحد أولاده ، وقامت بها مملكة مستقلة مدى حين . ونشبت الخصومة بعد ذلك بين بيدرو ملك أراجون وبيدرو القاسى ملك قشتالة ، وانحاز ملك أراجون إلى الكونت هنرى دى تراستمارا المطالب بعرش قشتالة ، واستمر يعاونه بالمال والجند حتى انتهى أخيرا بالتغلب على أخيه بيدرو القاسى ، والجلوس على عرش قشتالة سنة ١٣٦٩م حسبما فصلنا من قبل . وظفر بيدرو كذلك باسترداد صقلية فى سنة ١٣٧٧م ، ولكنه منح حكمها لابنه مارتن ، وزوج بيدرو ابنته اليونور ليوحنا الأول ملك قشتالة ، فكان ذلك فيما بعد سببا فى انتقال عرش أراجون إلى بيت قشتالة الملكى حينما انقرض عقبه من الذكور .

وتوفى بيدرو الرابع سنة ١٣٨٧م وأراجون أوفر مايكون قوة واستقراراً ، فخلفه ولده يوحنا الأول . وكان أميرا ضعيف الخلال والعزم ، يعشق الأدب والشعر وتضجره مهام الملك ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام ، إذ توفى فى حادث سقوطه عن جواده سنة ١٣٩٥م .

فخلفه أخوه الأصغر مارتن الأول . وكان حكمه عهد هدوء واستقرار . ومنح عرش صقلية لولده مارتن . وفى عهده سادت علائق المودة والصداقة بين أراجون وغرناطة ، وعقدت بين المملكتين معاهدة صداقة وتحالف (سنة ١٤٠٥م) . ولما توفى مارتن فى سنة ١٤١٠م دون عقب ، ثارت حول وراثة عرش أراجون مشكلة دقيقة ، وتولى مجلس الكورتيس (البرلمان) حكم البلاد ، واستمر مدى عامين فى مباحثات ومناقشات مستمرة حول مسألة العرش ، وفى النهاية أصدر قراره باختيار الأمير فرديناند القشتالى ولد يوحنا الأول ملك قشتالة ، والمعروف بفرديناند صاحب أنتكيرة ، للجلوس على عرش أراجون ، وذلك باعتباره ولد الملكة اليونور ابنة بيدرو الرابع ملك أراجون واخت الملك مارتن ، فلبى فرديناند الدعوة وتخلى عن وصايته لابن أخيه يوحنا الثانى ملك قشتالة ، وجلس على عرش أراجون سنة ١٤١٢ م ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك أراجون .

ولم يطل أمد حكم الملك فرديناند سوى أربعة أعوام ، وكان أميرا قوى الخلال ذا مقدرة وفطنة فى تصريف الشئون ، ولكنه كان يضطرم بروح السلطان المطلق التى ألفها فى قشتالة ، ويتبرم بالحدود والقيود التى وضعها الدستور الأرجونى للحد من سلطان العرش . والواقع أن الحريات الدستورية كانت فى أراجون أرسخ وأكثر نضوجا منها فى قشتالة ، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الأرجونى ، وشدة مراسه ، وتعلقه بمبادئ الحرية ، وهى صفات لم تكن تروق فى تلك العصور لملوكية رجعية ، تحرص على سلطانها المطلق .

ولما توفى فرديناند الأول فى سنة ١٤١٦م ، خلفه على عرش أراجون ولده ألفونسو الخامس المعروف بالفونسو « الشهم » . على أن الفونسو الخامس لايكاد يمثل فى تاريخ أراجون ، وانما يمثل بالأخص فى تاريخ ايطاليا ومملكة نابل . وقد ورث الفونسو عرش صقلية مع عرش أراجون ، واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن يفتتح مملكة نابل وأن يجلس على عرشها (١٤٤٢م) . واستقر الفونسو فى نابل ، وترك حكم أراجون والأراضى التابعة لها لأخيه يوحنا ، يحكمها باسمه ومن قبله . وبسط ألفونسو على نابل وصقلية حكمه الفخم ، وسطع بلاطه بين القصور الإيطالية ، وكان نصيرا للعلوم والآداب والفنون ، يأخذ فى تعضيدها بقسط وافر ، شأن معاصريه من الأمراء والبابوات الذين ساهموا فى بعث النهضة ، وسطعوا فى عصر الإحياء (الرينصانص) . ولما توفى فى سنة ١٤٥٨م ، دون عقب شرعى ، ترك مملكة نابل لولده غير الشرعى فرديناند ، وجلس أخوه يوحنا على عرش أراجون باسم يوحنا الثانى .

وكان يوحنا الثانى أميرا وافر العزم والمقدرة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه طاغية خطر الأهواء والأساليب ؛ وشغل يوحنا عن شئون أراجون الداخلية بكفاحه فى سبيل الحصول على عرش ناڤار ، باعتباره زوجا ووريثا لملكتها بلانش ، وكذلك شغلته ثورة ولده الأمير كارلوس المعروف بأمير ڤيانا مدى حين ، وكان ينافس أباه فى الحصول على عرش ناڤار ، ويرى أنه أحق منه بميراث أمه . وحاول يوحنا بتحريض زوجه الثانية چنه هنريكيز أن يحرم ولده من نيابة العرش ، فثار إلى جانبه فريق من الشعب الأرجونى ، ونشبت بين الأب والإبن عدة وقائع انتهت

بوفاة الإبن فى سنة ١٤٦١م . وقيل إنه توفى مسموماً بيد زوج أبيه . وكذلك ثار الشعب القطلونى معلناً استقلاله . وشغل يوحنا بضعة أعوام حتى استطاع أن يخمد هذه الثورة الخطيرة (١٤٧٢م) . وكذلك نشبت الحرب بين أراجون وفرنسا من أجل ولاية روسيون الفرنسية وهزم يوحنا غير مرة . على أن أعظم مهمة شغلت يوحنا فى أواخر عهده هى السعى إلى تزويج ولده فرديناند من زوجه الثانية ، بالأميرة إيزابيلا القشتالية ، وقد كلل سعيه بالنجاح فى تحقيق هذا المشروع الخطير الذى كان إيذانا باتحاد أراجون وقشتالة فى مملكة اسبانية موحدة .

واستطال حكم يوحنا الثانى حتى سنة ١٤٧٩م ، وقد بلغ الثمانين من عمره وكف بصره ، فترك العرش لولده فرديناند الذى قدر له أن يضطلع مع زوجه إيزابيلا بأعظم دور فى العمل لإنشاء اسبانيا الكبرى .

٣ — اسبانيا النصرانية المتحدة

لما توفى هنرى الرابع ملك قشتالة فى سنة ١٤٧٤م ثارت حول وراثة العرش مشكلة دقيقة . ذلك أن الملك هنرى لم يترك سوى ابنة طفلة هى خوانا (جنه) . وكانت مع ذلك يشك فى نسبتها إليه ، وتنسب أبوتها إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دى لاكويفا ومن ثم كان اسمها الذائع خوانا بلترانيجا . وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء . بيد أن الأميرة إيزابيلا أخت الملك هنرى كانت بالعكس تتمتع بعطف الشعب القشتالى ، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء ، وكان أخوها الملك هنرى قد اعترف بحقها فى العرش ، وأيدها الكورتيس (مجلس النواب) فى ذلك عقب وفاة أخيها الفونسو فى سنة ١٤٦٨م ، ومن ثم فقد كان حقها فى وراثة العرش أمراً واضحاً .

وكانت الملكة إيزابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام ، بابن عمها الأمير فرديناند الأرجونى ولد الملك يوحنا الثانى . ولهذا الزواج الذى مهد لتوحيد اسبانيا النصرانية قصة طريفة . فقد كانت الأميرة إيزابيلا مذ كبرت مطمح الأنظار ، لما يؤهلها لعرش قشتالة من الإحتمالات القوية . وكان يوحنا الثانى ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرديناند لما يربط أسرتى قشتالة وأراجون من أواصر القربى الوثيقة ، ويقرب سبل الاتحاد بين الفريقين . وكان فرديناند أول المتقدمين لخطبة

الأميرة ، ولكن أخوها الملك هنرى لم يكن راضياً عن ترشيحه ؛ وكان ينافسه فى خطبتها عدة من الأمراء والنبلاء منهم كبير فرسان قلعة رباح ، وقد وافق أخوها الملك هنرى على زواجه منها ، ولكنه توفى قبل إتمامه ؛ وكذلك خطبها الفونسو ملك البرتغال وأمراء آخرون ، ولكن إيزابيلا رغبت عنهم جميعا ، وآثرت بعد إمعان النظر أن تستجيب إلى دعوة ابن عمها فرديناند الأرجونى ، لنفس البواعث التى دعت إلى تقدمه إليها ، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكى واحد . ووُضعت شروط الزواج بين الفريقين سراً نظراً لمعارضة الملك هنرى ، وفيها يتعهد فرديناند بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها ، وأن يجعل مقر إقامته فيها ، والا يغادرها دون إذن إيزابيلا ، والا يجرى أى قرارات أو تعيينات فى المملكة دون إذنها ، وتعهد بالأخص بأن يتابع الحرب ضد المسلمين . وفى اكتوبر سنة ١٤٦٩ عقد الزواج فى بلد الوليد ، حيث كانت تقيم الأميرة ، فى حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء ، وأخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج بكتاب تشرح فيه البواعث التى حدت بها إلى اتمامه . وهكذا حققت أمنية ملك أراجون وأثبتت الحوادث التالية بعد نظره وخطورة مشروعه .

وأعلنت ايزابيلا عقب وفاة أخيها ملكة لقشتالة وليون فى سقوبية حيث كانت تقيم ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٤٧٤م ، وحذت مدن أخرى حذو سقوبية ، ولكن الأمر لم يكن هينا . ذلك أنه كان ثمة فريق من النبلاء يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى ، وكان زوجها فرديناند يطمح فوق ذلك إلى انتزاع العرش لنفسه باعتباره آخر عقب من الذكور لبيت قشتالة الملكى ، ولكن إيزابيلا تمسكت بحقها ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على مزاولة الملك المشترك تعتبر فيه إيزابيلا ملكة أصلية لقشتالة ، لها الرأى الأول فى الجليل من الشئون ، ويجرى القضاء وتسك العملة باسمهما . وكان خصوم إيزابيلا فى ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة ، قد تفاهموا مع ملك البرتغال الفونسو الخامس على تأييد سعيهم فى تنصيب خوانا ملكة وهى ابنة أخته ، وعلى الاقتران بها . وفى مايو سنة ١٤٧٥ غزا ملك البرتغال قشتالة بقواته ، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سموره ، وبادر فرديناند وايزابيلا بالسير فى قواتهما إلى لقائه ، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سموره ، فارتد

القشتاليون فى البداية . ولكن الفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه . وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر . وفى النهاية رجحت كفة القشتاليين . واضطر ملك البرتغال أن يرتد أدراجه (فبراير سنة ١٤٧٦م) .

فرديناند الخامس (الكاثوليكى) ملك أراجون

وهكذا انتصر فرديناند وإيزابيلا على خصومهما ، واستقرا معا على عرش قشتالة بلا منازع . وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرديناند عرش أراجون على أثر وفاة أبيه يوحنا الثانى . وبذلك اتحدت المملكتان الاسبانيتان فى ظل عرش واحد . بعد أن فرقت بينهما المنافسات والحطوب أحقابا . واجتمعت كلمة اسبانيا النصرانية بعد أن طال افتراقها . وبدأت اسبانيا فى ظل فرديناند وإيزابيلا أو فى ظل الملكين الكاثوليكيين حسبما لقبا بعد . عصرا من القوة والعظمة والسؤدد لم تشهده فى تاريخها من قبل . وهو بحق فاتحة عصرها الذهبى .

وكان فرديناند الخامس أو فرديناند الكاثوليكى من أعظم ملوك اسبانيا
صرانية وأوفرهم عزما وهمة . وكان يتمتع بمقدرة فائقة ، سواء فى الإدارة أو فى
يادين الحرب والسياسة . بيد أن هذا الجانب الحسن من خلاله كانت تغشاه

ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة

صفات سيئة ، فقد كان فرديناند أميرا لاوازع له ، يجنح فى سياسته إلى الغدر
ومجانبة الوفاء ، وكان رجل الفرصة السانحة ، يلتمس إلى تحقيق أطماعه العظيمة
أى الوسائل مهما كانت تجانب المبادئ الأخلاقية المقررة أو مقتضيات الفروسة
والوفاء . وسوف نرى كيف تتجلى هذه الخلال البغيضة فى تصرفاته وأساليبه فى
معاملة الأمة الأندلسية المغلوبة .

وكانت زوجه الملكة إيزابيلا تتمتع أيضا بكثير من الذكاء والعزم . وكانت
تثير برقتها وتواضعها واحتشامها حب الشعب القشتالى واعجابه . بيد أنها كانت

تجيش بنزعة دينية عميقة تذهب أحيانا مذهب التعصب المضطرم ، وكانت تقع تحت تأثير الأحبار المتعصبين وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم ، وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية ، يذكى فى نفس هذه الملكة الورعة التى تنعت أيضا « بالكاثوليكية » أشنع ضروب التعصب ، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسبانى Inquisition واقرار كل ما جنح إلى ارتكابه باسم الدين من الأعمال والجرائم المثيرة .

وفى الوقت الذى جلس فيه فرديناند وإيزابيلا على عرش اسبانيا القوية الموحدة ، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية فى مرحلة النزع الأخيرة . وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان على أبو الحسن ولد السلطان محمد ابن اسماعيل . وكانت مملكتا قشتالة وأراجون قد شغلتا مدى حين بطائفة من الاضطرابات والحروب الداخلية المتعلقة بوراثة العرش وغيرها ، مما سبق أن فصلناه فى مواضعه ، فلم تسعفهما الفرص للاستمرار فى محاربة المسلمين . ولكن عهد الفتنة والخصومات الداخلية انتهى بجلوس فرديناند وإيزابيلا على عرش المملكة الإسبانية المتحدة . وكان شهر الحرب على مملكة غرناطة من أهم الأغراض القومية المشتركة التى تعاهد الملكان على الاضطلاع بها حسبما قدمنا ، ومن ثم فانه ما كادت تستقر شئون قشتالة الداخلية ، حتى أخذ الملكان « الكاثوليكيان » يستعدان لمحاربة المسلمين بكل ما أوتيا من قوة وعزم . وهنا نقف فى سرد تاريخ اسبانيا النصرانية لنعود إلى استئناف حديثنا عن مملكة غرناطة والمأساة الأندلسية فى موضعها .